قُلْتُ: إن كان معناه: واتبعوا الشهوات كان معطوفًا على مضمر؛ لأنّ المعنى إلاّ قليلاً ممن أنجينا منهم نهوا عن الفساد واتبع الذين ظلموا شهواتهم فهو: عطف على نهوا، وإن كان معناه: واتبعوا جزاء الإتراف قالوا: أو للحال كأنه قيل: أنجينا القليل وقد اتبع الذين ظلموا جزاءهم.

فإن قُلْتَ: فقوله: **﴿وكانوا مجرمين﴾**؟ **قُلْتُ:** على اترفوا أي: اتبعوا الإتراف وكونهم مجرمين؛ لأن تابع الشهوات مغمور بالآثام، أو أريد بالإجرام إغفالهم للشكر، أو على اتبعوا أي: اتبعوا شهواتهم وكانوا مجرمين بذلك، ويجوز أن يكون اعتراضًا وحكمًا عليهم بأنهم قوم مجرمون.

وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾.

﴿كان﴾ بمعنى: صحّ واستقام. واللام لتأكيد النفي و **﴿بظلم﴾** حال من الفاعل والمعنى: واستحال في الحكمة أن يهلك الله القرى ظالمًا لها **﴿وأهلها﴾** قوم **﴿مصلحون﴾** تنزيهًا لذاته عن الظلم، وإيذانًا بأن إهلاك المصلحين من الظلم، وقيل: الظلم الشرك، ومعناه: أنه لا يهلك القرى بسبب شرك أهلها وهم مصلحون يتعاطون الحق فيما بينهم ولا يضمون إلى شركهم فسادًا آخر.

وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾.

﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمّة واحدة﴾ يعني: لاضطرهم إلى أن يكون أهل أمّة واحدة أي: ملة واحدة وهي: ملة الإسلام كقوله: **﴿إنّ هذه أمّتكم أمّة واحدة﴾**[1] وهذا الكلام يتضمن نفي اضطرار، وإنه لم يضطرهم إلى الاتفاق على دين الحق، ولكنه مكّنهم من الاختيار الذي هو أساس التكليف، فاختار بعضهم الحق، وبعضهم الباطل، فاختلفوا فلذلك قال: **﴿ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك﴾** إلا ناسًا هداهم الله ولطف بهم فاتفقوا على دين الحق غير مخلفين فيه **﴿ولذلك خلقهم﴾** ذلك إشارة إلى ما دل عليه الكلام الأوّل وتضمنه يعني: ولذلك من التمكين والاختيار الذي كان عنه الاختلاف خلقهم، ليثيب مختار الحق بحسن اختياره، ويعاقب مختار الباطل بسوء اختياره **﴿وتمت كلمة ربك﴾** وهي قوله للملائكة: **﴿لأملأنّ جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾** لعلمه بكثرة من يختار الباطل.

وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾.

﴿وكلاً﴾ التنوين فيه عوض من المضاف إليه كأنه قيل: وكل نبأ **﴿نقصّ عليك﴾** و **﴿من أنباء الرسل﴾** بيان لكل و **﴿ما نثبت به فؤادك﴾** بدل من كلاً، ويجوز أن يكون المعنى: وكل اقتصاص نقصّ عليك على معنى، وكل نوع من أنواع الاقتصاص نقصّ عليك يعني: على الأساليب المختلفة، وما نثبت به مفعول نقص ومعنى: تثبيت فؤاده زيادة يقينه وما فيه طمانينة قلبه؛ لأنّ تكاثر الأدلة أثبت للقلب وأرسخ للعلم **﴿وجاءك في هذه الحق﴾** أي: في هذه السورة، أو في هذه الأنباء المقتصة فيها ما هو حق **﴿وموعظة وذكرى * وقل للذين لا يؤمنون﴾** من أهل مكة وغيرهم **﴿اعملوا﴾** على حالكم وجهتكم التي أنتم عليها **﴿إنا عاملون وانتظروا﴾** بنا الدوائر **﴿إنا منتظرون﴾** أن ينزل بكم نحو ما اقتص الله من النقم النازلة بأشباهكم.

وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾.

﴿ولله غيب السموات والأرض﴾ لا تخفى عليه خافية مما يجري فيهما فلا تخفى عليه أعمالكم **﴿وإليه يرجع الأمر كله﴾** فلا بدّ أن يرجع إليه أمرهم وأمرك فينتقم لك منهم **﴿فاعبده وتوكل عليه﴾** فإنه كافيك وكافلك **﴿وما ربك بغافل عما يعملون﴾** وقرئ: تعملون بالتاء أي: أنت وهم على تغليب المخاطب.

عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة هود أعطي من الأجر عشر حسنات بعدد من صدّق بنوح ومن كذب به وهود وصالح وشعيب ولوط وإبراهيم وموسى، وكان يوم القيامة من السعداء إن شاء الله تعالى ذلك»[2].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة يوسف مكية

الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾.

﴿تلك﴾ إشارة إلى آيات السورة و **﴿الكتاب المبين﴾** السورة أي: تلك الآيات التي أنزلت إليك في هذه السورة آيات السورة الظاهر أمرها في إعجاز العرب وتبكيتهم، أو التي تبين لمن تدبرها أنها من عند الله لا من عند البشر، أو الواضحة التي لا تشتبه على العرب معانيها لنزولها بلسانهم، أو قد أبين فيها ما سألت عنه اليهود من قصة يوسف، فقد روي أنّ علماء اليهود قالوا لكبراء المشركين:

---

(1) سورة الأنبياء، الآية: 92، وسورة المؤمنون، الآية: 52.

(2) ذكره ابن مردويه الواحدي في تفسيره الوسيط، وابن الجوزي والزيلعي 2/157.

سلوا محمدًا لم انتقل آل يعقوب من الشام إلى مصر، وعن قصة يوسف.

إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾.

﴿**انزلناه**﴾ أنزلنا هذا الكتاب الذي فيه قصة يوسف في حال كونه ﴿**قرآنًا عربيًا**﴾ وسمي بعض القرآن قرآنًا؛ لأنّ القرآن اسم جنس يقع على كله وبعضه ﴿**لعلكم تعقلون**﴾ إرادة أن تفهموه وتحيطوا بمعانيه ولا يلتبس عليكم ﴿ولو جعلناه قرآنًا أعجميًا لقالوا لولا فصلت آياته﴾[1].

نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾.

﴿**القصص**﴾ على وجهين يكون مصدرًا بمعنى: الاقتصاص تقول: قصّ الحديث يقصه قصصًا كقولك: شله يشله شللاً إذا طرده، ويكون فعلاً بمعنى مفعول كالنفض والحسب ونحوه: النبأ والخبر في معنى: المنبأ به والمخبر به، ويجوز أن يكون من تسمية المفعول بالمصدر كالخلق والصيد، وإن أريد المصدر فمعناه: نحن نقص عليك أحسن الاقتصاص ﴿**بما أوحينا إليك هذا القرآن**﴾ أي: بإيحائنا إليك هذه السورة، على أن يكون أحسن منصوبًا نصب المصدر لإضافته إليه ويكون المقصوص محذوفًا؛ لأنّ قوله: ﴿**بما أوحينا إليك هذا القرآن**﴾ مغن عنه، ويجوز أن ينتصب هذا القرآن بنقص كأنه قيل: نحن نقص عليك أحسن الاقتصاص هذا القرآن بإيحائنا إليك، والمراد بأحسن الاقتصاص: أنه اقتصّ على أبدع طريقة وأعجب أسلوب، ألا ترى أنّ هذا الحديث مقتص في كتب الأوّلين وفي كتب التواريخ ولا ترى اقتصاصه في كتاب منها مقاربًا لاقتصاصه في القرآن، وإن أريد بالقصص المقصوص فمعناه: نحن نقص عليك أحسن ما يقص من الأحاديث، وإنما كان أحسنه لما يتضمن من العبر والنكت والحكم والعجائب التي ليست في غيرها، والظاهر أنه[2] أحسن ما يقتص في بابه كما يقال في الرجل: هو أعلم الناس وأفضلهم يراد في فنه.

فإن قُلْتَ: ممّ اشتقاق ﴿**القصص**﴾؟ **قُلْتُ**: من قصّ أثره إذا تبعه؛ لأنّ الذي يقصّ الحديث يتبع ما حفظ منه شيئًا فشيئًا كما يقال: تلا القرآن إذا قراه: لأنه يتلو أي: يتبع ما حفظ منه آية بعد آية ﴿**وإن كنت**﴾ إن مخففة من الثقيلة. واللام هي التي تفرق بينها وبين النافية. والضمير في ﴿**قبله**﴾ راجع إلى قوله: ﴿**ما أوحينا**﴾ والمعنى: وإنّ الشأن والحديث كنت من قبل إيحائنا إليك من الغافلين عنه أي: من الجاهلين به، ما كان لك فيه علم قط، ولا طرق سمعك طرف منه.

إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾.

﴿**إذ قال يوسف**﴾ بدل من أحسن القصص وهو من بدل الاشتمال؛ لأنّ الوقت مشتمل على القصص، وهو: المقصوص، فإذا قصّ وقته فقد قصّ، أو بإضمار انكر، ويوسف اسم عبراني وقيل: عربي وليس بصحيح؛ لأنه لو كان عربيًا لانصرف لخلوّه عن سبب آخر سوى التعريف.

فإن قُلْتَ: فما تقول فيمن قرأ يوسف بكسر السين أو يوسف بفتحها؟ هل يجوز على قراءته أن يقال هو عربي؛ لأنه على وزن المضارع المبني للفاعل، أو المفعول من آسف، وإنما منع الصرف للتعريف ووزن الفعل؟ **قُلْتُ**: لا لأنّ القراءة المشهورة قامت بالشهادة على أنّ الكلمة أعجمية، فلا تكون عربية تارة وأعجمية أخرى. ونحو يوسف يونس رويت فيه هذه اللغات الثلاث، ولا يقال: هو عربي؛ لأنه في لغتين منها بوزن المضارع من آنس وأونس، وعن النبي ﷺ: «إذا قيل من الكريم؟ فقولوا: الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم»[3] ﴿**يا أبت**﴾ قرئ بالحركات الثلاث.

فإن قُلْتَ: ما هذه التاء؟ **قُلْتُ**: تاء تانيث وقعت عوضًا من ياء الإضافة، والدليل على أنها تاء تأنيث قلبها هاء في الوقف.

فإن قُلْتَ: كيف جاز إلحاق تاء التأنيث بالمذكر؟ **قُلْتُ**: كما جاز نحو قولك: حمامة ذكر وشاة ذكر ورجل ربعة وغلام يفعة.

فإن قُلْتَ: فلم ساغ تعويض تاء التأنيث من ياء الإضافة؟ **قُلْتُ**: لأنّ التأنيث والإضافة يتناسبان في أنّ كل واحد منهما زيادة مضمومة إلى الاسم في آخره.

فإن قُلْتَ: فما هذه الكسرة؟ **قُلْتُ**: هي الكسرة التي كانت قبل الياء في قولك: يا أبي قد زحلقت إلى التاء لاقتضاء تاء التأنيث أن يكون ما قبلها مفتوحًا.

فإن قُلْتَ: فما بال الكسرة لم تسقط بالفتحة التي اقتضتها التاء وتبقى التاء ساكنة؟ **قُلْتُ**: امتنع ذلك فيها لأنها اسم، والأسماء حقها التحريك لأصالتها في الإعراب، وإنما جاز تسكين الياء وأصلها أن تحرك تخفيفًا، لأنها حرف لين، وأما التاء فحرف صحيح نحو كاف الضمير فلزم تحريكها.

فإن قُلْتَ: يشبه الجمع بين التاء وبين هذه الكسرة الجمع بين العوض والمعوض منه؛ لأنها في حكم الياء إذا

---

(1) سورة فصلت، الآية: 44.

(2) لعله في غيره، كعبارة النسفي.

(3) رواه الترمذي في كتاب: التفسير، باب: ومن سورة يوسف (الحديث رقم: 3116) والحاكم في المستدرك 2/570، والبخاري في = كتاب: الانبياء باب: «أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت» (الحديث رقم: 3382) ومسلم في كتاب: الفضائل، باب: من فضائل يوسف عليه السلام (الحديث رقم: 6111).

قلت: يا غلام، فكما لا يجوز يا أبتي لا يجوز يا أبت؟ **قُلْتُ:** الياء والكسرة قبلها شيئان، والتاء عوض من أحد الشيئين وهو الياء، والكسرة غير متعرض لها، فلا يجمع بين العوض والمعوض منه إلا إذا جمع بين التاء والياء لا غير، ألا ترى إلى قولهم: يا أبتا مع كون الألف فيه بدلاً من الياء كيف جاز الجمع بينهما وبين التاء ولم يعد ذلك جمعًا بين العوض والمعوض منه، فالكسرة أبعد من ذلك.

فإن قُلْتَ: فقد دلت الكسرة في يا غلام على الإضافة؛ لأنها قرينة الياء ولصيقتها فإن دلت على مثل ذلك في يا أبت فالتاء المعوضة لغو وجودها كعدمها **قُلْتُ:** بل حالها مع التاء كحالها مع الياء إذا قلت: يا أبي.

فإن قُلْتَ: فما وجه من قرأ بفتح التاء وضمها؟ **قُلْتُ:** أما من فتح فقد حذف الألف من يا أبتا واستبقى الفتحة قبلها كما فعل من حذف الياء في يا غلام، ويجوز أن يقال: حركها بحركة الياء المعوض منها في قولك: يا أبي، وأما من ضم فقد رأى اسمًا في آخره تاء تأنيث فأجراه مجرى الأسماء المؤنثة بالتاء فقال: يا أبت كما تقول: ياتبة من غير اعتبار لكونها عوضًا من غير ياء الإضافة. وقرئ: إني رأيت بتحريك الياء، وأحد عشر بسكون العين تخفيفًا لتوالي المتحركات فيما هو في حكم اسم واحد وكذا إلى تسعة عشر إلا اثني عشر لئلا يلتقي ساكنان، ورأيت من الرؤيا لا من الرؤية؛ لأنّ ما ذكره معلوم أنه منام؛ لأن الشمس والقمر لو اجتمعا مع الكواكب ساجدة ليوسف في حال اليقظة لكانت آية عظيمة ليعقوب عليه السلام ولما خفيت عليه وعلى الناس.

فإن قُلْتَ: ما أسماء تلك الكواكب؟ **قُلْتُ:** روى جابر أنّ يهوديًا جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد، أخبرني عن النجوم التي رآهنّ يوسف، فسكت رسول الله ﷺ، فنزل جبريل عليه السلام، فأخبره بذلك، فقال النبي ﷺ لليهودي: «إن أخبرتك هل تسلم»؟ قال: نعم، قال: «جريان والطارق والذيال وقابس وعمودان والفليق والمصبح والضروح والفرغ ووثاب وذو الكتفين رآها يوسف والشمس والقمر نزلن من السماء وسجدن له». فقال اليهودي: أي والله إنها لأسماؤها[1]، وقيل: الشمس والقمر أبواه، وقيل: أبوه وخالته، والكواكب إخوته، وعن وهب: أنّ يوسف رأى وهو ابن سبع سنين أنّ إحدى عشرة عصًا طوالاً كانت مركوزة في الأرض كهيئة الدارة، وإذا عصا صغيرة تثب عليها حتى اقتلعتها وغلبتها، فوصف ذلك لأبيه فقال: إياك أن تذكر هذا لإخوتك، ثم رأى وهو ابن ثنتي عشرة سنة الشمس والقمر والكواكب تسجد له، فقصها على أبيه فقال له: لا تقصها عليهم فيلغوا لك الغوائل، وقيل: كان بين رؤيا يوسف ومصير إخوته إليه أربعون سنة وقيل: ثمانون.

فإن قُلْتَ: لم أخر الشمس والقمر؟ **قُلْتُ:** أخرهما ليعطفهما على الكواكب على طريق الاختصاص بيانًا لفضلهما واستبدادهما بالمزية على غيرهما من الطوالع، كما أخر جبريل وميكائيل عن الملائكة، ثم عطفهما عليها لذلك، ويجوز أن تكون الواو بمعنى مع أي: رأيت الكواكب مع الشمس والقمر.

فإن قُلْتَ[2]: ما معنى تكرار ﴿رأيت﴾؟ **قُلْتُ:** ليس بتكرار إنما هو كلام مستأنف على تقدير سؤال وقع جوابًا له كأن يعقوب عليه السلام قال له عند قوله: ﴿**إني رأيت أحد عشر كوكبًا**﴾ كيف رأيتها؟ سائلاً عن حال رؤيتها، فقال: ﴿**رأيتهم لي ساجدين**﴾.

فإن قُلْتَ: فلم أجريت مجرى العقلاء في ﴿**رأيتهم لي ساجدين**﴾؟ **قُلْتُ:** لأنه لما وصفها بما هو خاص بالعقلاء وهو السجود أجرى عليها حكمهم كأنها عاقلة، وهذا كثير شائع في كلامهم أن يلابس الشيء الشيء من بعض الوجوه فيعطى حكمًا من أحكامه إظهارًا لأثر الملابسة والمقاربة. عرف يعقوب عليه السلام دلالة الرؤيا على أنّ يوسف يبلغه الله مبلغًا من الحكمة ويصطفيه للنبوّة وينعم عليه بشرف الدارين كما فعل بآبائه، فخاف عليه حسد الإخوة وبغيهم. والرؤيا بمعنى: الرؤية إلا أنها مختصة بما كان منها في المنام دون اليقظة، فرق بينها بحرفي التأنيث كما قيل: القربة والقربى، وقرئ: رويَاك بقلب الهمزة واو، وسمع الكسائي: رياك ورياك بالإدغام وضم الراء وكسرها وهي ضعيفة؛ لأنّ الواو في تقدير الهمزة فلا يقوى إدغامها كما لم يقو الإدغام في قولهم: اتزر من الإزار واتجر من الأجر ﴿**فيكيدوا**﴾ منصوب بإضمار أن والمعنى: إن قصصتها عليهم كادوك.

فإن قُلْتَ: هلا قيل: فيكيدوك كما قيل: ﴿فكيدوني﴾[3] **قُلْتُ:** ضمن معنى فعل يتعدى باللام ليفيد معنى فعل الكيد مع إفادة معنى الفعل المضمن فيكون آكد وأبلغ في التخويف ونلك نحو: فيحتالوا لك ألا ترى إلى تأكيده بالمصدر ﴿**عدوّ مبين**﴾ ظاهر العداوة لما فعل بآدم وحواء ولقوله: ﴿لأقعدنّ لهم صراطك المستقيم﴾[4] فهو يحمل على الكيد والمكر وكل شر ليورط من يحمله ولا يؤمن أن يحملهم على مثله.

وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾.

﴿**وكذلك**﴾ ومثل ذلك الاجتباء ﴿**يجتبيك ربك**﴾ يعني:

---

(1) رواه الحاكم في المستدرك 4/396.

(2) قال أحمد: وأحسن من ذلك أن الكلام طال بين الفعل والحال، فطري ذكر الفعل لمناسبة الحال، وهي المقصودة، إذ الآية في= = السجود كانت، والله أعلم.

(3) سورة هود، الآية: 55.

(4) سورة الأعراف، الآية: 16.

وكما اجتباك لمثل هذه الرؤيا العظيمة الدالة على شرف وعز وكبرياء شأن كذلك يجتبيك ربك لأمور عظام وقوله: ﴿ويعلمك﴾ كلام مبتدأ غير داخل في حكم التشبيه كأنه قيل: وهو يعلمك ويتم نعمته عليك، والاجتباء الاصطفاء افتعال من جبيت الشيء إذا حصلته لنفسك، وجبيت الماء في الحوض جمعته، والأحاديث الرؤيا؛ لأنّ الرؤيا إمّا حديث نفس أو ملك أو شيطان. وتأويلها: عبارتها وتفسيرها، وكان يوسف عليه السلام أعبر الناس للرؤيا وأصحّهم عبارة لها، ويجوز أن يراد بتأويل الأحاديث معاني كتب الله وسنن الأنبياء وما غمض واشتبه على الناس من أغراضها ومقاصدها يفسرها لهم ويشرحها ويدلهم على مودعات حكمها، وسميت أحاديث لأنه يحدث بها عن الله ورسله فيقال: قال الله، وقال الرسول كذا وكذا، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿فبأي حديث بعده يؤمنون﴾[1] ﴿ الله نزل أحسن الحديث﴾[2] وهو: اسم جمع للحديث وليس بجمع أحدوثة. ومعنى إتمام النعمة عليهم: أنه وصل لهم نعمة الدنيا بنعمة الآخرة بأن جعلهم أنبياء في الدنيا وملوكًا ونقلهم عنها إلى الدرجات العلا في الجنة، وقيل: أتمها على إبراهيم بالخلة والإنجاء من النار ومن ذبح الولد، وعلى إسحاق بإنجائه من الذبح وفدائه بذبح عظيم، وبإخراج يعقوب والأسباط من صلبه، وقيل: علم يعقوب أنّ يوسف يكون نبيًا وإخوته أنبياء استدلالاً بضوء الكواكب، فلذلك قال: وعلى آل يعقوب، وقيل: لما بلغت الرؤيا إخوة يوسف حسدوه وقالوا: ما رضي أن سجد له إخوته حتى سجد له أبواه، وقيل: كان يعقوب مؤثرًا له بزيادة المحبة والشفقة لصغره ولما يرى فيه من المخايل، وكان إخوته يحسدونه، فلما رأى الرؤيا ضاعف له المحبة فكان يضمه كل ساعة إلى صدره ولا يصبر عنه فتبالغ فيهم الحسد، وقيل: لما قص رؤياه على يعقوب قال: هذا أمر مشتت يجمع الله لك بعد دهر طويل. و﴿آل يعقوب﴾ أهله وهم نسله وغيرهم، وأصل آل: أهل بدليل تصغيره على أهيل إلا أنه لا يستعمل إلا فيمن له خطر، يقال: آل النبي، وآل الملك، ولا يقال آل الحائك، ولا آل الحجام، ولكن أهلهما. وأراد بالأبوين الجد وأبا الجد؛ لأنهم في حكم الأب في الأصالة ومن ثَمَّ يقولون: ابن فلان وإن كان بينه وبين فلان عدّة و﴿إبراهيم وإسحاق﴾ عطف بيان لأبويك ﴿إنّ ربك عليم﴾ يعلم من يحق له الاجتباء ﴿حكيم﴾ لا يتم نعمته إلا على من يستحقها.

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ ﴿٧﴾.

﴿في يوسف وإخوته﴾ أي في قصتهم وحديثهم ﴿آيات﴾ علامات ودلائل على قدرة الله وحكمته في كل شيء ﴿للسائلين﴾ لمن سأل عن قصتهم وعرفها، وقيل: آيات على نبوّة محمد ﷺ للذين سألوه من اليهود عنها فأخبرهم بالصحة من غير سماع من أحد ولا قراءة كتاب. وقرئ: آية، وفي بعض المصاحف: عبرة، وقيل: إنما قص الله تعالى على النبي عليه الصلاة والسلام خبر يوسف وبغي إخوته عليه لما رأى من بغي قومه عليه ليتأسى به، وقيل: أساميهم: يهوذا وروبيل وشمعون ولاوى وربالون ويشجر ودينة ودان ونفتالي وجاد، وآشر، السبعة الأولون كانوا من ليا بنت خالة يعقوب، والأربعة الآخرون من سريتين زلفة وبلهة، فلما توفيت ليا تزوج أختها راحيل فولدت له بنيامين ويوسف.

إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾.

﴿ليوسف﴾[3] اللام للابتداء وفيها تأكيد وتحقيق لمضمون الجملة، أرادوا: أنّ زيادة محبته لهما أمر ثابت لا شبهة فيه ﴿وأخوه﴾ هو: بنيامين وإنما قالوا: أخوه وهم جميعًا إخوته؛ لأنّ أمّهما كانت واحدة، وقيل: ﴿أحب﴾ في الاثنين؛ لأن أفعل من لا يفرّق فيه بين الواحد وما فوقه، ولا بين المذكر والمؤنث إذا كان معه من، ولابدّ من الفرق مع لام التعريف، وإذا أضيف جاز الأمران. والواو في ﴿ونحن عصبة﴾ واو الحال يعني: أنه يفضلهما في المحبة علينا وهما اثنان صغيران لا كفاية فيهما ولا منفعة، ونحن جماعة عشرة رجال كفاة نقوم بمرافقه، فنحن أحقّ بزيادة المحبة منهما لفضلنا بالكثرة والمنفعة عليهما ﴿إنّ أبانا لفي ضلال مبين﴾ أي: في ذهاب عن طريق الصواب في ذلك. والعصبة والعصابة العشرة فصاعدًا، وقيل: إلى الأربعين سموا بذلك؛ لأنهم جماعة تعصب بهم الأمور ويستكفون النوائب، وروى النزال بن سبرة عن عليّ

---

(1) سورة الأعراف، الآية: 185.

(2) سورة الزمر، الآية: 23.

(3) قال أحمد: هذه تؤيد قراءة ابن مروان: هؤلاء بناتي هنّ أطهر لكم، بالنصب، وقد قال سيبويه فيها: احتبى ابن مروان في لحنه، أي: تمكن، وحيث تايدت بقراءة أمير المؤمنين كرّم الله وجهه، فلا بدّ من التماس المجمل الصحيح لها، وليس ذلك ببعيد إن شاء الله، فنقول: لو قالوا: ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا، ونحن نحن على طريقة:

أنا أبو النجم وشعري شعري

ونحو أنا أنا، وأنت أنت، لم يكن في فصاحته مقال، وقد علمت أنّ معنى: أنا أنا، أي: أنا الموصوف بالأوصاف الشهيرة التي استغنى= عن ذكرها، فلا بعد، والحالة هذه في حذف الخبر لمساواته المبتدأ، وعدم زيادته عليه لفظاً، وراحة من تكرار اللفظ بعينه، والسياق يرشد إلى المحذوف، وإذا كان كذلك، فقول القائلين: ﴿ليوسف وأخوه أحبّ إلى أبينا منا﴾، ونحن معناه: ونحن نحن، ولكن استغنوا عن الخبر للسرّ الذي ذكرناه، فقولهم: ونحن، كلام تام بالتقدير المذكور، فلا غرو في وقوع الحال بعده، وهذا بعينه يجري في قوله: هؤلاء بناتي هنّ أطهر لكم، فقوله: هنّ، في حكم الكلام التّام، والمراد: هؤلاء بناتي هنّ المشهورات، بالأوصاف الحميدة الظاهرة، وأصل الكلام: هنّ هنّ، فوقع الحال بعد التمام، والله أعلم.

رضي الله عنه: ونحن عصبة بالنصب، وقيل: معناه ونحن نجتمع عصبة، وعن ابن الأنباري: هذا كما تقول العرب: إنما العامري عمته أي: يتعهد عمته.

ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾.

﴿اقتلوا يوسف﴾ من جملة ما حكي بعد قوله: ﴿إذ قالوا﴾[1] كأنهم أطبقوا على ذلك إلا من قال: ﴿لا تقتلوا يوسف﴾[2] وقيل: الآمر بالقتل شمعون، وقيل: دان والباقون كانوا راضين فجعلوا آمرين ﴿أرضًا﴾ أرضًا منكورة مجهولة بعيدة من العمران وهو معنى تنكيرها وإخلائها من الوصف، ولإبهامها من هذا الوجه نصبت نصب الظروف المبهمة ﴿يخل لكم وجه أبيكم﴾ يقبل عليكم إقبالة واحدة لا يلتفت عنكم إلى غيركم، والمراد سلامة محبته لهم ممن يشاركهم فيها وينازعهم إياه، فكان ذكر الوجه لتصوير معنى إقباله عليهم؛ لأنّ الرجل إذا أقبل على الشيء أقبل بوجهه، ويجوز أن يراد بالوجه: الذات كما قال تعالى: ﴿ويبقى وجه ربك﴾[3] وقيل يخل لكم يفرغ لكم من الشغل بيوسف ﴿من بعده﴾ من بعد يوسف أي: من بعد كفايته بالقتل أو التغريب، أو يرجع الضمير إلى مصدر اقتلوا أو اطرحوا ﴿قومًا صالحين﴾ تائبين إلى الله مما جنيتم عليه، أو يصلح ما بينكم وبين أبيكم بعذر تمهدونه، أو تصلح دنياكم وتنتظم أموركم بعده بخلو وجه أبيكم، وتكونوا إمّا مجزوم عطفًا على يخل لكم أو منصوب بإضمار أن، والواو بمعنى: مع كقوله: ﴿وتكتموا الحق﴾[4].

قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾.

﴿قائل منهم﴾ هو: يهوذا وكان أحسنهم فيه رأيًا وهو: الذي قال: ﴿فلن أبرح الأرض﴾[5]. قال لهم: القتل عظيم ﴿ألقوه في غيابة الجب﴾ وهي غوره وما غاب منه عن عين الناظر وأظلم من أسفله قال المنخل:

إن أنا يومًا غيبتني غيابتي فسيروا بسيري في العشيرة والأهل

أراد غيابة حفرته التي يدفن فيها، وقرئ: غيابات على الجمع، وغيابات بالتشديد، وقرأ الجحدري: غيبة، والجب البئر لم تطو لأن الأرض تجبّ جبًّا لا غير ﴿يلتقطه﴾ يأخذه بعض السيارة: بعض الأقوام الذين يسيرون في الطريق، وقرئ: تلتقطه بالتاء على المعنى؛ لأنّ بعض السيارة سيارة كقوله:

كما شرقت صدر القناة من الدم

ومنه: ذهبت بعض أصابعه ﴿إن كنتم فاعلين﴾ إن كنتم على أن تفعلوا ما يحصل به غرضكم فهذا هو الرأي.

قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾.

﴿ما لك لا تامنا﴾ قرئ: بإظهار النونين، وبالإدغام بإشمام وبغير إشمام، وتيمنّا بكسر التاء مع الإدغام والمعنى: لمَ تخافنا عليه ونحن نريد له الخير ونحبه ونشفق عليه وما وجد منا في بابه ما يدل على خلاف النصيحة والمقة، وأرادوا بذلك لما عزموا على كيد يوسف استنزاله على رأيه وعادته في حفظه منهم، وفيه دليل على أنه أحسّ منهم بما أوجب أن لا يأمنهم عليه.

أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾.

﴿نرتع﴾ نتسع في أكل الفواكه وغيرها، وأصل الرتعة الخصب والسعة، وقرئ: نرتع من ارتعى يرتعي. وقرئ: يرتع ويلعب بالياء، ويرتع من أرتع ماشيته، وقرأ العلاء بن سيابة: يرتع بكسر العين، ويلعب بالرفع على الابتداء.

فإن قُلْتَ: كيف استجاز لهم يعقوب عليه السلام اللعب؟ **قُلْتُ**: كان لعبهم الاستباق والانتضال ليضروا أنفسهم بما يحتاج إليه لقتال العدوّ لا للهو بدليل قوله: ﴿إنا ذهبنا نستبق﴾[6] وإنما سموه لعبًا؛ لأنه في صورته ﴿ليحزنني﴾ اللام لام الابتداء كقوله: ﴿إنّ ربك ليحكم بينهم﴾[7] ودخلوها أحد ما ذكره سيبويه من سببي المضارعة.

قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾.

اعتذر إليهم بشيئين[8] أحدهما: أنّ ذهابهم به ومفارقته إياه مما يحزنه؛ لأنه كان لا يصبر عنه ساعة والثاني: خوفه عليه من عدوة الذئب إذا غفلوا عنه برعيهم ولعبهم واقلّ به اهتمامهم ولم تصدّق بحفظه عنايتهم، وقيل: رأى في النوم أنّ الذئب قد شدّ على يوسف فكان يحذره فمن ثم قال ذلك فلقنهم العلة، وفي أمثالهم: البلاء موكل بالمنطق. وقرئ: الذئب بالهمزة على الأصل والتخفيف، وقيل: اشتقاقه من تذاءبت الريح إذا أتت من كل جهة.

قَالُوا۟ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾.

القسم محذوف تقديره والله ﴿لئن أكله الذئب﴾ واللام موطئة للقسم وقوله: ﴿إنا إذًا لخاسرون﴾ جواب للقسم مجزئ عن جزاء الشرط. والواو في ونحن عصبة واو الحال، حلفوا له لئن كان ما خافه من خطفه الذئب أخاهم

---

(1) سورة يوسف، الآية: 8.

(2) سورة يوسف، الآية: 10.

(3) سورة الرحمن، الآية: 27.

(4) سورة البقرة، الآية: 42.

(5) سورة يوسف، الآية: 80.

(6) سورة يوسف، الآية: 17.

(7) سورة النحل، الآية: 124.

(8) قال أحمد: وكان أشغل الأمرين لقلبه خوف الذئب عليه؛ لأنه مظنة هلاكه، وأما حزنه لمفارقته ريثما يرتع، ويلعب، ويعود سالماً إليه عما قليل، فأمر سهل، فكأنهم لم يشتغلوا إلا بتأمينه، وتطمينه من أشدّ الأمرين عليه، والله أعلم.

من بينهم وحالهم أنهم عشرة رجال بمثلهم تعصب الأمور وتكفى الخطوب إنهم إذًا لقوم خاسرون أي: هالكون ضعفًا وخورًا وعجزًا، أو مستحقون أن يهلكوا؛ لانه غناء عندهم ولا جدوى في حياتهم، أو مستحقون لأن يدعى عليهم بالخسارة والدّمار وأن يقال: خسرهم الله ودمّرهم حين أكل الذئب بعضهم وهم حاضرون. وقيل: إن لم نقدر على حفظ بعضنا فقد هلكت مواشينا إذًا وخسرناها.

فإن قُلْتَ: قد اعتذر إليهم بعذرين فلم أجابوا عن أحدهما دون الآخر؟ **قُلْتُ:** هو الذي كان يغيظهم ويذيقهم الأمرين فأعاروه آذانًا صمًا ولم يعبؤا به.

فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾.

﴿أن يجعلوه﴾ مفعول أجمعوا من قولك: أجمع الأمر وأزمعه فأجمعوا أمركم. وقرئ في غيابات الجب قيل: هو بئر ببيت المقدس، وقيل: بأرض الأردن، وقيل: بين مصر ومدين، وقيل: على ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب، وجواب لما محذوف، ومعناه: فعلوا به ما فعلوا من الأذى، فقد روي أنهم لما برزوا به إلى البريّة أظهروا له العداوة وأخذوا يهينونه ويضربونه، وكلما استغاث بواحد منهم لم يغثه إلا بالإهانة والضرب حتى كادوا يقتلونه، فجعل يصيح: يا أبتاه لو تعلم ما يصنع بابنك أولاد الإماء! فقال يهوذا: أما أعطيتموني موثقًا أن لا تقتلوه؟ فلما أرادوا إلقاءه في الجب تعلق بثيابهم فنزعوها من يديه، فتعلق بحائط البئر فربطوا يديه ونزعوا قميصه، فقال: يا إخوتاه ردّوا عليّ قميصي أتوارى به، وإنما نزعوه ليلطخوه بالدم ويحتالوا به على أبيهم، فقالوا له: ادع الشمس والقمر والأحد عشر كوكبًا تؤنسك، ودلوه في البئر فلما بلغ نصفها ألقوه ليموت، وكان في البئر ماء فسقط فيه، ثم آوى إلى صخرة فقام عليها وهو يبكي فناداه، فظنّ أنها رحمة أدركتهم فأجابهم، فأرادوا أن يرضخوه ليقتلوه، فمنعهم يهوذا، وكان يهوذا يأتيه بالطعام ويروى: أن إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار وجرّد عن ثيابه أتاه جبريل بقميص من حرير الجنة، فألبسه إياه، فدفعه إبراهيم إلى إسحاق، وإسحاق إلى يعقوب، فجعله يعقوب في تميمة علقها في عنق يوسف، فجاء جبريل فأخرجه وألبسه إياه **﴿وأوحينا إليه﴾** قيل: أوحي إليه في الصغر كما أوحي إلى يحيى وعيسى، وقيل: كان إذ كان ذاك مدركًا، وعن الحسن: كان له سبع عشرة سنة **﴿لتنبئنهم بامرهم هذا﴾** وإنما أوحي إليه ليؤنس في الظلمة والوحشة ويبشر بما يؤول إليه أمره، ومعناه: لتتخلصن مما أنت فيه، ولتحدّثن إخوتك بما فعلوا بك **﴿وهم لا يشعرون﴾** إنك يوسف لعلو شأنك وكبرياء سلطانك وبعد حالك عن أوهامهم ولطول العهد المبدّل للهيآت والأشكال، وذلك أنهم حين دخلوا عليه ممتارين فعرفهم وهم له منكرون دعا بالصواع فوضعه على يده ثم نقره فطنّ فقال: إنه ليخبرني هذا الجام أنه كان لكم أخ من أبيكم يقال له: يوسف، وكان يدنيه دونكم، وأنكم انطلقتم به وألقيتموه في غيابة الجب وقلتم لأبيكم: أكله الذئب، وبعتموه بثمن بخس. ويجوز أن يتعلق وهم لا يشعرون بقوله: وأوحينا على أنا أنسناه بالوحي وأزلنا عن قلبه الوحشة وهم لا يشعرون ذلك ويحسبون أنه مرهق مستوحش لا أنيس له، وقرئ: لننبئنهم بالنون على أنه وعيد لهم، وقوله: وهم لا يشعرون متعلق بأوحينا لا غير.

وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾.

وعن الحسن عشيًا على تصغير عشي يقال: لقيته عشيًا وعشيانًا وأصيلاً وأصيلانًا، ورواه ابن جني: عُشى بضم العين والقصر، وقال عشوا: من البكاء، وروي أنّ امرأة حاكمت إلى شريح فبكت، فقال له الشعبي: يا أبا أمية أما تراها تبكي؟ فقال: قد جاء إخوة يوسف يبكون وهم ظلمة، ولا ينبغي لأحد أن يقضي إلا بما أمر أن يقضي به من السنة المرضية، وروي[1]: أنه لما سمع صوتهم فزع وقال: ما لكم يا بني هل أصابكم في غنمكم شيء؟ قالوا: لا، قال: فما لكم؟ وأين يوسف؟

قَالُوا يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾.

﴿قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبق﴾ أي نتسابق، والافتعال والتفاعل يشتركان، كالانتضال والتناضل، والارتماء والترامي، وغير ذلك والمعنى: نتسابق في العدو، أو في الرمي وجاء في التفسير ننتضل **﴿بمؤمن لنا﴾** بمصدق لنا **﴿ولو كنا صادقين﴾** ولو كنا عندك من أهل الصدق والثقة لشدّة محبتك ليوسف، فكيف وأنت سيئ الظن بنا غير واثق بقولنا.

وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾.

﴿بدم كذب﴾ ذي كذب، أو وصف بالمصدر مبالغة كأنه نفس الكذب وعينه، كما يقال للكذاب: هو الكذب بعينه والزور بذاته، ونحوه.

فهنّ به جود وأنتم به بخل

وقرئ: كذبًا نصًا على الحال بمعنى: جاؤا به كاذبين ويجوز أن يكون مفعولاً له، وقرأت عائشة رضي الله عنها: كذب بالدال غير المعجمة أي: كدر، وقيل: طرى، وقال ابن

---

(1) قال أحمد: وقواه على اتهامهم، أنهم ادعوا الوجه الخاص الذي خاف يعقوب عليه السلام هلاكه بسببه أوّلاً، وهو: أكل الذئب إياه، فاتهمهم أن يكونوا تلقفوا العذر من قوله لهم: ﴿وأخاف أن يأكله= = الذئب﴾ وكثيراً ما تتلقف الأعذار الباطلة من قلق في المخاطب المعتذر إليه، حتى كان بعض أمراء المؤمنين يلقنون السارق الإنكار.

جني: أصله من الكذب وهو: الفوف البياض الذي يخرج على أظفار الأحداث، كأنه دم قد أثر في قميصه. روي: أنهم ذبحوا سخلة ولطخوه بدمها وزلّ عنهم أن يمزقوه، وروي: أنّ يعقوب لما سمع بخبر يوسف صاح بأعلى صوته وقال: أين القميص؟ فأخذه وألقاه على وجهه وبكى حتى خضب وجهه بدم القميص، وقال: تالله ما رأيت كاليوم ذئبًا أحلم من هذا، أكل ابني ولم يمزق عليه قميصه، وقيل: كان في قميص يوسف ثلاث آيات: كان دليلاً ليعقوب على كذبهم، وألقاه على وجهه فارتد بصيرًا، ودليلاً على براءة يوسف حين قدّ من دبر.

فإن قُلْتَ: ﴿على قميصه﴾ ما محله؟ **قُلْتُ:** محله النصب على الظرف كأنه قيل: وجاؤا فوق قميصه بدم كما تقول: جاء على جماله بأحمال.

فإن قُلْتَ: هل يجوز أن تكون حالاً متقدمة؟ **قُلْتُ:** لا؛ لأنّ حال المجرور لا تتقدم عليه **﴿سوّلت﴾** سهلت من السول وهو: الاسترخاء أي سهلت **﴿لكم أنفسكم أمرًا﴾** عظيمًا ارتكبتموه من يوسف وهونته في أعينكم، استدّل على فعلهم به بما كان يعرف من حسدهم وبسلامة القميص، أو أوحي إليه بأنهم قصدوه **﴿فصبر جميل﴾** خبر أو مبتدأ لكونه موصوفًا، أي: فأمري صبر جميل، أو فصبر جميل أمثل، وفي قراءة أبيّ: فصبرًا جميلاً، والصبر الجميل جاء في الحديث المرفوع أنه الذي لا شكوى فيه[1]، ومعناه: لا شكوى فيه إلى الخلق ألا ترى إلى قوله: **﴿إنما أشكو بثي وحزني إلى الله﴾**[2] وقيل: لا أعايشكم على كآبة الوجه بل أكون لكم كما كنت، وقيل: سقط حاجبا يعقوب على عينيه فكان يرفعهما بعصابة، فقال له: ما هذا؟ فقال: طول الزمان وكثرة الأحزان، فأوحى الله تعالى إليه: يا يعقوب أتشكوني؟ قال: يا رب خطيئة فاغفرها لي **﴿والله المستعان﴾** أي: أستعينه **﴿على﴾** احتمال **﴿ما تصفون﴾** من هلاك يوسف والصبر على الرزء فيه.

وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾.

﴿وجاءت سيارة﴾ رفقة تسير من قبل مدين إلى مصر وذلك بعد ثلاثة أيام من إلقاء يوسف في الجب، فأخطأوا الطريق، فنزلوا قريبًا منه، وكان الجب في قفرة بعيدة من العمران لم يكن إلا للرعاة، وقيل: كان ماؤه ملحًا فعذب حين ألقي فيه يوسف **﴿فأرسلوا﴾** رجلاً يقال له: مالك بن ذعر الخزاعي ليطلب لهم الماء. والوارد الذي يرد الماء ليستقي للقوم **﴿يا بشرى﴾** نادى البشرى كأنه يقول: تعالى فهذا من أونتك، وقرئ: يا بشراي على إضافتها إلى نفسه وفي قراءة الحسن وغيره: يا بشري بالياء مكان الألف جعلت الياء بمنزلة الكسرة قبل ياء الإضافة وهي لغة للعرب مشهورة، سمعت أهل السروات يقولون في دعائهم: يا سيدي ومولي، وعن نافع: يا بشرائي بالسكون وليس بالوجه لما فيه من التقاء الساكنين على غير حده إلا أن يقصد الوقف. قيل: لما أدلى دلوه أي: أرسلها في الجب تعلق يوسف بالحبل، فلما خرج إذا هو بغلام أحسن ما يكون، فقال: يا بشراي **﴿هذا غلام﴾** وقيل: ذهب به فلما دنا من أصحابه صاح بذلك يبشرهم به **﴿وأسروه﴾** الضمير للوارد وأصحابه أخفوه من الرفقة، وقيل: أخفوا أمره ووجد أنهم له في الجب، وقالوا لهم: دفعه إلينا أهل الماء لنبيعه لهم بمصر، وعن ابن عباس: أنّ الضمير لإخوة يوسف وأنهم قالوا للرفقة: هذا غلام لنا قد أبق فاشتروه منا، وسكت يوسف مخافة أن يقتلوه و**﴿بضاعة﴾** نصب على الحال أي: أخفوه متاعًا للتجارة والبضاعة ما بضع من المال للتجارة أي: قطع **﴿والله عليم بما يعملون﴾** لم يخف عليه أسرارهم، وهو وعيد لهم حيث استبضعوا ما ليس لهم،أو والله عليم بما يعمل إخوة يوسف بأبيهم وأخيهم من سوء الصنيع.

وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ ۚ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾.

﴿وشروه﴾ وباعوه **﴿بثمن بخس﴾** مبخوس ناقص عن القيمة نقصانًا ظاهرًا، أو زيف ناقص العيار **﴿دراهم﴾** لا دنانير **﴿معدودة﴾**[3] قليلة تعد عدًا ولا توزن؛ لأنهم كانوا لا يزنون إلا ما بلغ الأوقية وهي الأربعون ويعدون ما دونها، وقيل للقليلة: معدودة؛ لأنّ الكثيرة يمتنع من عدّها لكثرتها، وعن ابن عباس: كانت عشرين درهمًا، وعن السدي: اثنين وعشرين **﴿وكانوا فيه من الزاهدين﴾** ممن يرغب عما في يده فيبيعه بما طف من الثمن؛ لأنهم التقطوه، والملتقط للشيء متهاون به لا يبالي بم باعه؛ لأنه يخاف أن يعرض له مستحق ينتزعه من يده فيبيعه من أوّل مساوم بأوكس الثمن، ويجوز أن يكون معنى وشروه: واشتروه يعني: الرفقة من إخوته وكانوا فيه من الزاهدين؛ لأنهم اعتقدوا أنه آبق فخافوا أن يخطروا بما لهم فيه، ويروى: أنّ إخوته اتبعوهم يقولون لهم: استوثقوا منه لا يأبق، وقوله: **﴿فيه﴾** ليس من صلة الزاهدين؛ لأنّ الصلة لا تتقدّم على الموصول. ألا تراك لا تقول: وكانوا زيدًا من

---

(1) ذكره الطبري في تفسيره.

(2) سورة يوسف، الآية: 86.

(3) قال أحمد: ومن التعبير عن القلة بالعدد، الدعوة المأثورة على الكفرة: اللهم أحصهم عدداً، واستأصلهم بدداً، ولا تبق منهم أحداً، فالمدعو به، وإن كان إحصاؤهم عدداً في الظاهر، إلا أنّ هذا ليس = مراداً، لأنّ الله تعالى أحصى كل شيء عدداً، وأحاط به علماً، فلا بد من مقصود وراء ذلك، وهو لازم العدد، وذلك القلة فلما كان كل قليل معدوداً، وكل كثير غير معدود، دعى عليهم بالقلة، وعبر عنها بلازمها، وهو: الإحصاء، والله أعلم.

الضاربين، وإنما هو: بيان، كأنه قيل: في أي شيء زهدوا؟ فقال: زهدوا فيه.

وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾.

﴿الذي اشتراه﴾ قيل: هو قطفير، أو اطفير، وهو: العزيز الذي كان على خزائن مصر والملك يومئذٍ الريان بن الوليد رجل من العماليق، وقد آمن بيوسف، ومات في حياة يوسف، فملك بعده قابوس بن مصعب، فدعاه يوسف إلى الإسلام فأبى. واشتراه العزيز وهو ابن سبع عشرة سنة، وأقام في منزله ثلاث عشرة سنة، واستوزره ريان بن الوليد وهو ابن ثلاثين سنة، وآتاه الله العلم والحكمة وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة، وتوفي وهو ابن مائة وعشرين سنة. وقيل: كان الملك في أيامه فرعون موسى عاش أربعمائة سنة بدليل قوله: ﴿ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات﴾[1]. وقيل: فرعون موسى من أولاد فرعون يوسف، وقيل: اشتراه العزيز بعشرين دينارًا وزوجي نعل وثوبين أبيضين، وقيل: أدخلوه السوق يعرضونه فترافعوا في ثمنه حتى بلغ ثمنه وزنه مسكًا وورقًا وحريرًا فابتاعه قطفير بذلك المبلغ ﴿أكرمي مثواه﴾ اجعلي منزله ومقامه عندنا كريمًا أي: حسنًا مرضيًا بدليل قوله: ﴿إنه ربي أحسن مثواي﴾[2] والمراد: تفقديه بالإحسان وتعهديه بحسن الملكة حتى تكون نفسه طيبة في صحبتنا ساكنة في كنفنا، ويقال للرجل: كيف أبو مثواك وأم مثواك؟ لمن ينزل به من رجل أو امرأة يراد: هل تطيب نفسك بثوائك عنده؟ وهل يراعي حق نزولك به؟ واللام في لامرأته متعلقة بقال لا باشتراه ﴿عسى أن ينفعنا﴾ لعله إذا تدرب وراض الأمور وفهم مجاريها نستظهر به على بعض ما نحن بسبيله فينفعنا فيه بكفايته وأمانته، أو نتبناه ونقيمه مقام الولد، وكان قطفير عقيمًا لا يولد له، وقد تفرس فيه الرشد فقال ذلك، وقيل: أفرس الناس ثلاثة: العزيز حين تفرس في يوسف فقال لامرأته: ﴿أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا﴾ والمرأة: التي أتت موسى وقالت لأبيها: ﴿يا أبت استأجره﴾[3] وأبو بكر: حين استخلف عمر رضي الله عنهما. وروي أنه سأله عن نفسه فأخبره بنسبه فعرفه ﴿وكذلك﴾ الإشارة إلى ما تقدّم من إنجائه وعطف قلب العزيز عليه. والكاف منصوب تقديره ومثل ذلك الإنجاء والعطف ﴿مكنا﴾ له، أي: كما أنجيناه وعطفنا العزيز، كذلك مكنا له في أرض مصر وجعلناه ملكًا يتصرف فيها بأمره ونهيه ﴿ولنعلمه من تأويل الأحاديث﴾ كان ذلك الإنجاء والتمكين؛ لأنّ غرضنا ليس إلا ما تحمد عاقبته من علم وعمل ﴿والله غالب على أمره﴾ على أمر نفسه، لا يمنع عما يشاء ولا ينازع ما يريد ويقضي، أو على أمر يوسف يدبره لا يكله إلى غيره، قد أراد إخوته به ما أرادوا ولم يكن إلا ما أراد الله ودبره ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ أن الأمر كله بيد الله.

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾.

قيل في الأشد: ثماني عشر سنة، وعشرون، وثلاث وثلاثون، وأربعون، وقيل: أقصاه ثنتان وستون ﴿حكمًا﴾ حكمة وهو: العلم بالعمل واجتناب ما يجهل فيه، وقيل: حكمًا بين الناس وفقهًا ﴿وكذلك نجزي المحسنين﴾ تنبيه على أنه كان محسنًا في عمله متقيًا في عنفوان أمره، وأنّ الله آتاه الحكم والعلم جزاء على إحسانه. وعن الحسن: من أحسن عبادة ربه في شبيبته آتاه الله الحكمة في اكتهاله.

وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾.

المراود: مفاعلة من راد يرود: إذا جاء وذهب كأن المعنى: خادعته عن نفسه أي: فعلت ما يفعل المخادع لصاحبه عن الشيء الذي لا يريد أن يخرجه من يده يحتال أن يغلبه عليه ويأخذه منه، وهي عبارة عن التحمل لمواقعته إياها ﴿وغلقت الأبواب﴾ قيل: كانت سبعة. قرئ: هيت بفتح الهاء وكسرها مع فتح التاء وبناؤه كبناء ابن وعيط، وهيت كجير، وهيث كحيث، وهئت بمعنى: تهيأت يقال: هاء يهيء كجاء يجيء، إذا تهيأ وهيئت لك، واللام من صلة الفعل. وأما في الأصوات فللبيان كأنه قيل: لك أقول هذا، كما تقول: هلم لك ﴿معاذ الله﴾ أعوذ بالله معاذًا ﴿إنه﴾ إن الشأن والحديث ﴿ربي﴾ سيدي ومالكي يريد قطفير ﴿أحسن مثواي﴾ حين قال لك: أكرمي مثواه، فما جزاؤه أن أخلفه في أهله سوء الخلافة وأخونه فيهم ﴿إنه لا يفلح الظالمون﴾ الذين يجازون الحسن بالسيء، وقيل: أراد الزناة؛ لأنهم ظالمون أنفسهم، وقيل: أراد الله تعالى؛ لأنه مسبب الأسباب.

وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾.

همّ بالأمر إذا قصده وعزم عليه قال:

هممت ولم أفعل وكدت وليتني تركت على عثمان تبكي حلائله

ومنه قولك: لا أفعل ذلك ولا كيدًا ولا همًا أي: ولا أكاد أن أفعله كيدًا، ولا أهم بفعله همًا حكاه سيبويه، ومنه: الهمام وهو: الذي إذا همّ بأمر أمضاه ولم يتكل عليه،

(1) سورة غافر، الآية: 34.

(2) سورة يوسف، الآية: 23.

(3) سورة القصص، الآية: 26.

وقوله: ﴿ولقد همت به﴾ معناه: ولقد همت بمخالطته ﴿وهمّ بها﴾ وهمّ بمخالطتها ﴿لولا ان رأى برهان ربه﴾ جوابه محذوف تقديره لولا أن رأى برهان ربه لخالطها فحذف؛ لأن قوله: وهمّ بها يدل عليه كقولك: هممت بقتله لولا أني خفت الله؛ معناه: لو أني خفت الله لقتلته.

فإن قُلْتَ: كيف جاز على نبيّ الله أن يكون منه همّ بالمعصية وقصد إليها؟ **قُلْتُ:** المراد أنّ نفسه مالت إلى المخالطة ونازعت إليها عن شهوة الشباب وقرمه ميلاً يشبه الهمّ به والقصد إليه، وكما تقتضيه صورة تلك الحال التي تكاد تذهب بالعقول والعزائم وهو يكسر ما به ويردّه بالنظر في برهان الله المأخوذ على المكلفين من وجوب اجتناب المحارم، ولو لم يكن ذلك الميل الشديد المسمى همًا لشدته لما كان صاحبه ممدوحًا عند الله بالامتناع؛ لأن استعظام الصبر على الابتلاء على حسب عظم الابتلاء وشدته، ولو كان همه كهمها عن عزيمة لما مدحه الله بأنه من عباده المخلصين، ويجوز أن يريد بقوله وهمّ بها: وشارف أن يهم بها كما يقول الرجل: قتلته لو لم أخف الله يريد: مشارفة القتل ومشافهته كأنه شرع فيه.

فإن قُلْتَ: قوله: ﴿وهمّ بها﴾ داخل تحت حكم القسم في قوله: ﴿ولقد همّت به﴾ أم هو خارج منه؟ **قُلْتُ:** الأمران جائزان، ومن حق القارئ إذا قدّر خروجه من حكم القسم وجعله كلامًا برأسه أن يقف على قوله: ﴿ولقد همت به﴾ ويبتدئ قوله: ﴿وهمّ بها لولا أن رأى برهان ربه﴾ وفيه أيضًا إشعار بالفرق بين الهمين.

فإن قُلْتَ: لمَ جعلت جواب لولا محذوفًا يدل عليه همّ بها وهلا جعلته هو الجواب مقدّمًا؟ **قُلْتُ:** لأن لولا لا يتقدم عليها جوابها من قبل أنه في حكم الشرط وللشرط صدر الكلام وهو مع ما في حيز من الجملتين مثل كلمة واحدة ولا يجوز تقديم بعض الكلمة على بعض، وأما حذف بعضها إذا دل الدليل عليه فجائز.

فإن قُلْتَ: فلم جعلت لولا متعلقة بهمّ بها وحده؟ ولم تجعلها متعلقة بجملة قوله: ﴿ولقد همت به وهمّ بها﴾ لأن الهمّ لا يتعلق بالجواهر ولكن بالمعاني، فلابد من تقدير المخالطة والمخالطة لا تكون إلا من إثنين معًا فكأنه قيل: ولقد هما بالمخالطة لولا أن منع مانع أحدهما؟ **قُلْتُ:** نعم ما قلت، ولكن الله سبحانه قد جاء بالهمين على سبيل التفصيل حيث قال: ﴿ولقد همت به وهمّ بها﴾ فكان إغفاله إلغاء له، فوجب أن يكون التقدير ولقد همت بمخالطته وهمّ بمخالطتها على أن المراد بالمخالطتين توصلها إلى ما هو حظها من قضاء شهوتها منه وتوصله إلى ما هو حظه من قضاء شهوته منها، لولا أن رأى برهان ربه فترك التوصل إلى حظه من الشهوة، فلذلك كانت لولا حقيقة بأن تعلق بهمّ بها وحده، وقد فسر همّ يوسف بأنه حل الهميان وجلس منها مجلس المجامع وبأنه حل تسكة سراويله وقعد بين شعبها الأربع وهي مستلقية على قفاها، وفسر البرهان بأنه سمع صوتًا: إياك وإياها، فلم يكترث له فسمعه ثانيًا فلم يعمل به فسمع ثالثًا أعرض عنها فلم ينجع فيه حتى مثل له يعقوب عاضًا على أنملته، وقيل: ضرب بيده في صدره فخرجت شهوته من أنامله، وقيل: كل ولد يعقوب له اثنا عشر ولدًا إلا يوسف فإنه ولد له أحد عشر ولدًا من أجل ما نقص من شهوته حين همّ وقيل: صيح به: يا يوسف لا تكن كالطائر كان له ريش فلما زنا قعد لا ريش له، وقيل: بدت كف فيما بينهما ليس لها عضد ولا معصم مكتوب فيها، وإن عليكم لحافظين كرامًا كاتبين فلم ينصرف، ثم رأى فيها ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلاً فلم ينته، ثم رأى فيها، واتقوا يومًا ترجعون فيه إلى الله فلم ينجع فيه فقال الله لجبريل عليه السلام: أدرك عبدي قبل أن يصيب الخطيئة، فانحطّ جبريل، وهو يقول: يا يوسف اتعمل عمل السفهاء وأنت مكتوب في ديوان الأنبياء، وقيل: رأى تمثال العزيز، وقيل: قامت المرأة إلى صنم كان هناك فسترته وقالت: أستحي منه أن يرانا، فقال يوسف: استحييت ممن لا يسمع ولا يبصر ولا أستحي من السميع البصير العليم بنوات الصدور. وهذا ونحوه مما يورده أهل الحشو والجبر الذين دينهم بهت الله تعالى وأنبيائه، وأهل العدل والتوحيد ليسوا من مقالاتهم ورواياتهم بحمد الله بسبيل، ولو وجدت من يوسف عليه السلام أدنى زلة لنعيت عليه وذكرت توبته واستغفاره كما نعيت على آدم زلته وعلى داود وعلى نوح وعلى أيوب وعلى ذي النون وذكرت توبتهم واستغفارهم، كيف وقد أثني عليه وسمي مخلصًا فعلم بالقطع أنه ثبت في ذلك المقام الدحض، وأنه جاهد نفسه مجاهدة أولي القوّة والعزم ناظرًا في دليل التحريم ووجه القبح حتى استحقّ من الله فيما أنزل من كتب الأوّلين، ثم في القرآن الذي هو حجة على سائر كتبه ومصداق لها، ولم يقتصر إلا على استيفاء قصته وضرب سورة كاملة عليها ليجعل له لسان صدق في الآخرين كما جعله لجدّه الخليل إبراهيم عليه السلام، وليقتدي به الصالحون إلى آخر الدهر في العفة وطيب الإزار والتثبت في مواقف العثار، فأخزى الله أولئك في إيرادهم ما يؤدّي إلى أن يكون إنزال الله السورة التي هي أحسن القصص في القرآن العربيّ المبين ليقتدي بنبيّ من أنبياء الله في القعود بين شعب الزانية، وفي حلّ تكته للوقوع عليها، وفي أن ينهاه ربه ثلاث كرّات، ويصاح به من عنده ثلاث صيحات بقوارع القرآن وبالتوبيخ العظيم وبالوعيد الشديد وبالتشبيه بالطائر الذي سقط ريشه حين سفد غير أنثاه وهو جاثم في مربضه لا يتحلحل ولا ينتهي ولا ينتبه حتى يتداركه الله بجبريل وبإجباره، ولو أن أوقح الزناة وأشطرهم وأحدّهم حدقة وأجلحهم وجهًا لقي بأدنى ما لقي به نبيّ الله مما ذكروا لما بقي له عرق ينبض ولا عضو يتحرّك، فيا له من مذهب ما أفحشه ومن ضلال ما أبينه ﴿كذلك﴾ الكاف منصوب المحل أي: مثل ذلك التثبيت ثبتنا، أو مرفوعه أي: الأمر مثل ذلك ﴿لنصرف عنه السوء﴾ من خيانة السيد ﴿والفحشاء﴾ من الزنا ﴿إنه من عبادنا المخلصين﴾ الذين أخلصوا دينهم لله، وبالفتح الذين

أخلصهم الله لطاعته بأن عصمهم، ويجوز أن يريد بالسوء مقدّمات الفاحشة من القبلة والنظر بشهوة ونحو ذلك وقوله: ﴿من عبادنا﴾ معناه: بعض عبادنا أي: هو مخلص من جملة المخلصين، أو هو ناشئ منهم؛ لأنه من ذرّية إبراهيم الذين قال فيهم: ﴿إنا أخلصناهم بخالصة﴾[1].

وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾.

﴿واستبقا الباب﴾ وتسابقا إلى الباب على حذف الجار وإيصال الفعل كقوله: ﴿اختار موسى قومه﴾[2] على تضمين استبقا معنى: ابتدرا، نفر منها يوسف فأسرع يريد الباب ليخرج وأسرعت وراءه لتمنعه الخروج.

فإن قُلْتَ: كيف وحد الباب وقد جمعه في قوله: ﴿وغلقت الأبواب﴾[3]؟ **قُلْتُ:** أراد الباب البراني الذي هو المخرج من الدار والمخلص من العار، فقد روى كعب: أنه لما هرب يوسف جعل فراش القفل يتناثر ويسقط حتى خرج من الأبواب ﴿وقدّت قميصه من دبر﴾ اجتذبته من خلفه فانقدّ أي: انشق حين هرب منها إلى الباب وتبعته تمنعه ﴿وألفيا سيدها﴾ وصادفا بعلها وهو قطفير؛ تقول المرأة لبعلها سيدي، وقيل: إنما لم يقل سيدهما؛ لأنّ ملك يوسف لم يصح فلم يكن سيدًا له على الحقيقة قيل: ألفياه مقبلاً يريد أن يدخل، وقيل: جالسًا مع ابن عمّ للمرأة. لما اطلع منها زوجها على تلك الهيئة المريبة وهي مغتاظة على يوسف إذ لم يؤاتها، جاءت بحيلة جمعت فيها غرضيها وهما تبرئة ساحتها عند زوجها من الريبة والغضب على يوسف وتخويفه طمعًا في أن يؤاتيها خيفة منها ومن مكرها وكرهًا لما أيست من مؤاتاته طوعًا، ألا ترى إلى قولها: ﴿لئن لم يفعل ما آمره ليسجنن﴾[4] وما أنا فيه أي: ليس جزاؤه إلا السجن، ويجوز أن تكون استفهامية بمعنى: أيّ شيء جزاؤه إلا السجن كما تقول: من في الدار إلا زيد.

فإن قُلْتَ: كيف لم تصرح في قولها بذكر يوسف وإنه أراد بها سوءاً؟ **قُلْتُ**[5]: قصدت العموم وأنّ كل من أراد بأهلك سوءًا فحقه أن يسجن أو يعذب؛ لأنّ ذلك أبلغ فيما قصدته من تخويف يوسف. وقيل: العذاب الأليم الضرب بالسياط، ولما أغرت به وعرضته للسجن والعذاب وجب عليه الدفع عن نفسه فقال: ﴿هي راودتني عن نفسي﴾ ولولا ذلك لكتم عليها ﴿وشهد شاهد من أهلها﴾ قيل: كان ابن عمّ لها، وإنما ألقى الله الشهادة على لسان من هو من أهلها لتكون أوجب للحجة عليها، وأوثق لبراءة يوسف، وأنفى للتهمة عنه، وقيل: هو الذي كان جالسًا مع زوجها لدى الباب، وقيل: كان حكيمًا يرجع إليه الملك ويستشيره، ويجوز أن يكون بعض أهلها كان في الدار فبصر بها من حيث لا تشعر، فأغضبه الله ليوسف بالشهادة له والقيام بالحق، وقيل: كان ابن خال لها صبيًا في المهد. وعن النبي ﷺ: «تكلم أربعة وهم صغار، ابن ماشطة فرعون، وشاهد يوسف، وصاحب جريج، وعيسى»[6].

فإن قُلْتَ[7]: لمَ سمي قوله شهادة وما هو بلفظ الشهادة؟ **قُلْتُ:** لما أدّى مؤدى الشهادة في ﴿إن﴾ ثبت به قول يوسف وبطل قولها سمي شهادة.

فإن قُلْتَ: الجملة الشرطية كيف جازت حكايتها بعد فعل الشهادة؟ **قُلْتُ:** لأنها قول من القول، أو على إرادة القول، كأنه قيل: وشهد شاهد، فقال: إن كان قميصه.

فإن قُلْتَ: إن دل قدّ قميصه من دبر على أنها كاذبة وأنها هي التي تبعته واجتذبت ثوبه إليها فقدّته، فمن أين دل قدّه من قبل على أنها صادقة وأنه كان تابعها؟ **قُلْتُ:** من وجهين: أحدهما: أنه إذا كان تابعها وهي دافعته عن نفسها قدّت قميصه من قدامه بالدفع، والثاني[8]: أن يسرع خلفها

---

(1) سورة صٓ، الآية: 46.

(2) سورة الأعراف، الآية:155.

(3) سورة يوسف، الآية: 23.

(4) سورة يوسف، الآية: 32.

(5) قال أحمد: أو أظهرت بهذا الإجمال الحياء والحشمة أن تقول لبعلها: هذا أراد بي سوءاً، ولذلك أيضاً كنت بالسوء عما أضمرته من الهناة مبالغة في المكر والكيد، وإبعاداً للتهمة عنها بتوقي ما يشعر منها بالتبرّج والقحة، وعلى الضدّ من مقصودها، ولن وافق ملاحظتها بحشمة الإجمال، قول ابنة شعيب تمدح موسى عليه السلام فيما حكى الله عنها، قالت: ﴿إحداهما يا أبت استأجره، إنّ خير من استأجرت القويّ الأمين﴾، ولم تقل إنه قويّ أمين حياء من التعيين وحشمة وخفراً، ولكن هذه إنما بعثها على هذا الأدب شيمة الحياء، وامرأة العزيز إنما بعثها عليه التكلف والاستعمال، لذلك الغرض الفاسد من المكر، والله أعلم.

(6) رواه الحاكم في المستدرك (2/497)، وابن حبان في كتاب الجنائز، باب: ما جاء في الصبر وثواب الأمراض (الحديث رقم: 2904)، وأحمد في مسنده 1/310، والبيهقي في «شعب الإيمان» (الحديث رقم: 1636).

(7) قال أحمد: مهما قدّره من ذلك في اتباعه لها، يحتمل مثله في اتباعها له، فإنها إنما تقدّ قميصه من قبل، بتقدير أن يكون اجتذبها، حتى صارا متقابلين، فدفعته عن نفسها، وهذا بعينه يحتمل، إذا كانت هي التابعة أن تكون اجتذبته، حتى صارا متقابلين، ثم جذبت قميصه إليها من قبل، بل ههنا أظهر؛ لأن الموجب لقد القميص غالباً الجذب، لا الدفع.

(8) قال أحمد: وهذا بعينه محتمل، لو كانت هي التابعة، وهو فار منها، فانقد قميصه في إسراعه للفرار، والله أعلم. فليس كلام الزمخشري في هذا الفصل بذاك، والحق والله ولي التوفيق: أنّ الشاهد المذكور إن كان صبياً في المهد، كما ورد في بعض =

ليلحقها فيتعثر في مقادم قميصه فيشقه، وقرئ: من قبل ومن دبر بالضم على مذهب الغايات، والمعنى: من قبل القميص ومن دبره، وأما التنكير، فمعناه: من جهة يقال لها: قبل، ومن جهة يقال لها: دبر، وعن ابن أبي إسحاق أنه قرأ: من قبل ومن دبر بالفتح، كأنه جعلهما علمين للجهتين فمنعهما الصرف للعلمية والتأنيث، وقرئا: بسكون العين.

فإن قُلْتَ: كيف جاز الجمع بين إن الذي هو للاستقبال، وبين كان؟ لأنّ المعنى: أن يعلم أنه كان قميصه قدّ، ونحوه كقولك: إن أحسنت إلي فقد أحسنت إليك من قبل لمن يمتن عليك بإحسانه؛ تريد: إن تمتن عليّ أمتنّ عليك **﴿فلما رأى﴾** يعني: قطفير، وعلم براءة يوسف وصدقه وكذبها **﴿قال إنه﴾**[1] إن قولك: ما جزاء مَن أراد بأهلك سوءاً، أو أنّ هذا الأمر وهو طمعها في يوسف **﴿من كيدكن﴾** الخطاب لها ولأمتها. وإنما استعظم كيد النساء؛ لأنه وإن كان في الرجال إلا أنّ النساء ألطف كيدًا وأنفذ حيلة ولهنّ في ذلك نيقة ورفق وبذلك يغلبن الرجال. ومنه قوله تعالى: **﴿ومن شرّ النفاثات في العقد﴾**[2] والقصريات من بينهنّ معهنّ ما ليس مع غيرهنّ من البوائق، وعن بعض العلماء: أنا أخاف من النساء أكثر مما أخاف من الشيطان؛ لأنّ الله تعالى يقول: **﴿إنّ كيد الشيطان كان ضعيفًا﴾**[3] وقال للنساء: **﴿إنّ كيدكنّ عظيم﴾**.

يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَاسْتَغْفِرِي لِذَنۢبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾.

﴿يوسف﴾ حذف منه حرف النداء لأنه منادى قريب مفاطن للحديث، وفيه تقريب له وتلطيف لمحله **﴿أعرض عن هذا﴾** الأمر واكتمه ولا تحدّث به **﴿واستغفري﴾** أنت **﴿لذنبك إنك كنت من الخاطئين﴾** من جملة القوم المتعمدين للذنب يقال: خطئ إذا أذنب متعمدًا، وإنما قال: من الخاطئين بلفظ التذكير تغليبًا للذكور على الإناث وما كان العزيز إلا رجلاً حليمًا. وروي أنه كان قليل الغيرة.

❁ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾.

﴿وقال نسوة﴾ وقال: جماعة من النساء وكنّ خمسًا: امرأة الساقي، وامرأة الخباز، وامرأة صاحب الدواب، وامرأة صاحب السجن، وامرأة الحاجب، والنسوة: اسم مفرد لجمع المرأة، وتأنيثه غير حقيقي كتأنيث اللمة، ولذلك لم تلحق فعله تاء التأنيث، وفيه لغتان كسر النون وضمها **﴿في المدينة﴾** في مصر **﴿امرأت العزيز﴾** يردن قطفير والعزيز الملك بلسان العرب **﴿فتاها﴾** غلامها يقال: فتاي وفتاتي أي: غلامي وجاريتي **﴿شغفها﴾** خرق حبه شغاف قلبها حتى وصل إلى الفؤاد، والشغاف حجاب القلب، وقيل جلدة رقيقة يقال لها: لسان القلب قال النابغة:

وقد حال هم دون ذلك والهوى ... مكان الشغاف تبتغيه الأصابع

= الحديث، فالآية في مجرّد كلامه قبل أوانه حتى لو قال: صدق يوسف، وكذبت، لكفى برهاناً على صدقه عليه السلام، كما كان مجرد إخبار عيسى عليه السلام في المهد، برهاناً على صدق مريم، فلا تبقى المناسبة بين الامارة المنصوبة وما رتب عليها؛ لأنّ العمدة في الدلالة نصبها لا مناسبتها، وإن كان الشاهد بعض أهلها كان في الدار، فبصر بها من حيث لا تشعر، فاغضبه الله ليوسف بالشهادة له، وإقامة الحق كما ذكر الزمخشري، فهذا والله أعلم كان من حقه أن يصرح بما رأى، فيصدق يوسف، ويكذبها، ولكنه أراد أن لا يكون هو الفاضح لها، ووثق بأن انقطاع قميصه إنما كان من دبر، فنصبه أمارة لصدقه، وكذبها، ثم ذكر القسم الآخر، وهو: قدّه من قبل، على علم بأنه لم ينقد من قبل، حتى ينفي عن نفسه التهمة في الشهادة، وقصد الفضيحة، وينصفهما جميعاً، فينكر أمارة على صدقها المعلوم، نفيه كما ذكر أمارة على صدقه المعلوم وجوده، ومن ثم قدم أمارة صدقها على أمارة صدقه في النكر إزاحة للتهمة، ووثوقاً بأن الأمارة الثانية هي الواقعة، فلا يضره تأخيرها، وهذه اللطيفة بعينها، والله أعلم هو التي راعاها مؤمن آل فرعون في قوله: وإن يك كاذباً فعليه كذبه، وإن يك صادقاً يصبكم بعض الذي يعدكم، فقدم قسم الكذب على قسم الصدق إزاحة للتهمة التي خشي أن تتطرق إليه في حق موسى عليه السلام، ووثوقاً بأن القسم الثاني، وهو: صدقه، هو الواقع، فلا يضره تأخيره في الذكر لهذه الفائدة، ومن ثم قال: بعض الذي يعدكم، ولم يقل: كل ما يعدكم، تعريضاً بأنه معهم عليه، وأنه حريص على أن يبخسه حقه، وينحو هذا النحو تأخير يوسف عليه السلام لكشف وعاء أخيه؛ لأنه لو بدأ به، لفطنوا أنه هو الذي أمر بوضع السقاية فيه، والله أعلم، فقصد هذا الشاهد= = الأمارة الآخرة فقط، والمناسبة فيها محققة، وأما الأمارة الأولى، فليست مقصودة، وإنما ذكرها توطئة كما تقدّم، فلم يلتمس لها مناسبة جلية صحيحة على اليقين، وإنما هي كالفرض والتقدير، والله أعلم، وكأنه قال: إن كان قميصه قدّ من قبل، فهي صادقة، لكنه يعلم انتفاء الأمارة المذكورة، فعلق صدقها على محال، وهو وجود قده من قبل حالة عدمه، فهذا التقرير هو الصواب، والحق اللباب، والله الموفق. وأما إن كان الشاهد الحكيم الذي كان الملك يرجع إليه ويستشيره، كما ورد في بعض التفاسير، فلابدّ من التماس المناسبة في الطرفين؛ لأنها عهدة الحكيم، وأقرب وجه في المناسبة أن قد القميص من دبر دليل على إدباره عنها، وقدّه من قبل دليل على إقباله عليها بوجه، والله أعلم.

(1) قال أحمد: وفيما قاله هذا العالم، نظراً لأنّ الآية التي ذكر فيها كيد الشيطان من قول الله تعالى، غير محكى، وأما هذه الآية، فكيد النساء فيها من قول العزيز، ولكن حكاه الله تعالى عنه، فيحتمل حكايته عن أن يكون تصحيحاً له، ويحتمل أن لا يكون المراد تصويبه، وأيضاً فإن كيد الشيطان مذكور في الآية، مقابلاً لكيد الله تعالى، فكان ضعيفاً بالنسبة إليه الا ترى أوّل الآية ﴿الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان إنّ كيد الشيطان كان ضعيفاً﴾ وأيضاً فإنّ الكيد الذي يتعاطاه النساء وغيرهنّ، مستفاد من الشيطان، بوسوسته وتسويله، شواهد الشرع قائمة على ذلك، فلا يتصوّر حينئذٍ، أن يكون كيدهنّ أعظم من كيده، والله أعلم.

(2) سورة الفلق، الآية: 4 .

(3) سورة النساء، الآية: 76.

وقرئ شعفها بالعين من شعف البعير إذا هناه فأحرقه بالقطران قال:

كما شعف المهنوءة الرجل الطالي

و ﴿حبًا﴾ نصب على التمييز ﴿في ضلال مبين﴾ في خطأ وبعد عن طريق الصواب.

﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَـٰشَ لِلَّهِ مَا هَـٰذَا بَشَرًا إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾﴾.

﴿بمكرهنّ﴾ باغتيابهنّ، وسوء قالتهنّ، وقولهنّ: امرأة العزيز عشقت عبدها الكنعاني ومقتها، وسمي الاغتياب مكرًا لأنه في خفية وحال غيبة كما يخفي الماكر مكره، وقيل: كانت استكتمتهنّ سرّها فافشينه عليها ﴿أرسلت إليهنّ﴾ دعتهنّ، قيل: دعت أربعين امرأة منهنّ الخمس المنكورات ﴿واعتدت لهنّ متكا﴾ ما يتكئن عليه من نمارق قصدت بتلك الهيئة وهي: قعودهنّ متكئات والسكاكين في أيديهن أن يدهشن ويبهتن عند رؤيته، ويشغلن عن نفوسهنّ فتقع أيديهنّ على أيديهنّ فيقطعنها؛ لأنّ المتكئ إذا بهت لشيء وقعت يده على يده، ولا يبعد أن تقصد الجمع بين المكر به وبهنّ فتضع الخناجر في أيديهنّ ليقطعن أيديهنّ فتبكتهنّ بالحجة، ولتهول يوسف من مكرها إذا خرج على أربعين نسوة مجتمعات في أيديهنّ الخناجر توهمه أنهنّ يثبن عليه، وقيل: متكأ مجلس طعام؛ لأنهم كانوا يتكئون للطعام والشراب والحديث كعادة المترفين ولذلك نهي «أن يأكل الرجل متكئًا»[1]، وآتتهنّ السكاكين ليعالجن بها ما يأكلن، وقيل: متكًا طعامًا من قولك: اتكأنا عند فلان طعمنا على سبيل الكناية؛ لأن من دعوته ليطعم عندك تخذت له تكاة يتكئ عليها. قال جميل:

فظللنا بنعمة واتكأنا وشربنا الحلال من قلله

وعن مجاهد: متكأ طعامًا يحزّ حزًّا كان المعنى: يعتمد بالسكين؛ لأنّ القاطع يتكئ على المقطوع بالسكين. وقرئ متكأ بغير همز، وعن الحسن: متكاء بالمد كأنه مفتعال وذلك لإشباع فتحة الكاف كقوله: بمنتزاح بمعنى: بمنتزح، ونحوه ينباع بمعنى: ينبع وقرئ: متكا وهو: الأترج وأنشد:

فأهدت متكة لبني أبيها تخب بها العثمثمة[2] الوقاح

وكانت أهدت أترجة على ناقة، وكأنها الأترجة التي ذكرها أبو داود في سننه: أنها شقت بنصفين، وحملا كالعدلين على جمل وقيل: الزماورد، وعن وهب أترجًا وموزًا وبطيخًا وقيل: أعتدت لهنّ ما يقطع من متك الشيء معنى: بتكه إذا قطعه وقرأ الأعرج: متكأ مفعلاً من تكئ يتكأ إذا اتكأ ﴿أكبرنه﴾ أعظمنه وهبن ذلك الحسن الرائع والجمال الفائق قيل: كان فضل يوسف على الناس في الحسن كفضل القمر ليلة البدر على نجوم السماء، وعن النبي ﷺ: «مررت بيوسف الليلة التي عرج بي إلى السماء فقلت لجبريل: من هذا؟ فقال: يوسف. فقيل: يا رسول الله كيف رأيته؟ قال: «كالقمر ليلة البدر»[3]، وقيل: كان يوسف إذا سار في أزقة مصر يرى تلألؤ وجهه على الجدران كما يرى نور الشمس من الماء عليها، وقيل: ما كان أحد يستطيع وصف يوسف، وقيل: كان يشبه آدم يوم خلقه ربه، وقيل: ورث الجمال من جدته سارة، وقيل: أكبرن بمعنى: حضن، والهاء للسكت. يقال: أكبرت المرأة إذا حاضت، وحقيقته دخلت في الكبر؛ لأنها بالحيض تخرج من حدّ الصغر إلى حدّ الكبر، وكأن أبا الطيب أخذ من هذا التفسير قوله:

خف الله واستر ذا الجمال ببرقع فإن لحت حاضت في الخدور العواتق

﴿قطعن أيديهنّ﴾ جرحنها كما تقول: كنت أقطع اللحم فقطعت يدي تريد: جرحتها. حاشا كلمة تفيد معنى: التنزيه في باب الاستثناء تقول: أساء القوم حاشا زيد قال:

حاشا أبي ثوبان إن به ضنا عن الملحاة والشتم

وهي حرف من حروف الجر فوضعت موضع التنزيه والبراءة فمعنى: حاشا الله براءة الله وتنزيه الله، وهي قراءة ابن مسعود على إضافة حاشا إلى الله إضافة البراءة، ومن قرأ: حاشا لله فنحو قولك سقيًا لك، كأنه قال: براءة، ثم قال: لله لبيان من يبرأ وينزه، والدليل على تنزيل حاشا منزلة المصدر قراءة أبي السمال: حاشًا لله بالتنوين، وقراءة أبي عمرو: حاش لله بحذف الألف الآخرة، وقراءة الأعمش: حشا لله بحذف الألف الأولى، وقرئ: حاش لله بسكون الشين على أن الفتحة تبعث الألف في الإسقاط، وهي ضعيفة لما فيها من التقاء الساكنين على غير حد، وقرئ: حاشا الإله.

فإن قُلْتَ: فلم جاز في حاشا لله أن لا ينون بعد إجرائه مجرى براءة لله؟ قُلْتُ: مراعاة لأصله الذي هو الحرفية ألا ترى إلى قولهم: جلست من عن يمينه، كيف تركوا عن غير معرب على أصله، وعلى في قوله: غدت من عليه، منقلب الألف إلى الياء مع الضمير والمعنى: تنزيه الله تعالى من صفات العجز والتعجب من قدرته على خلق جميل مثله، وأما قوله: ﴿حاشا لله ما علمنا عليه من سوء﴾[4] فالتعجب من قدرته على خلق عفيف مثله ﴿ما هذا بشرًا﴾ نفين عنه البشرية[5] لغرابة جماله ومباعدة حسنه لما عليه محاسن

(1) روي في «كشف الأستار»، كتاب: الأطعمة، باب: النهي عن الأكل متكئًا (الحديث رقم: 2870).

(2) العثمثمة: الشديدة.

(3) أخرجه الحاكم في المستدرك 4/606.

(4) سورة يوسف، الآية: 52.

(5) قال أحمد: تقدم القول في مسألة التفضيل شافياً، والزمخشري لا يدعه التعصب للمعتقد الفاسد، أن يحمله على مثل هذه المشافهات، يرمي بها أهل الحق، فينسب إليهم الإجبار، والخسار، والمكابرة في الضروريات، وجحد الحقائق تعكيساً، وهذا كله هم برءاء منه، وحسبه من المقابلة بذلك، خطؤه في اعتقاد تفضيل =

الصور وأثبتن له الملكية وبتتن بها الحكم، وذلك لأن الله عز وجل ركز في الطباع أن لا أحسن من الملك، كما ركز فيها أن لا أقبح من الشيطان ولذلك يشبه كل متناه في الحسن والقبح بهما، وما ركز ذلك فيها إلا لأن الحقيقة كذلك كما ركز في الطباع أن لا أدخل في الشر من الشياطين، ولا أجمع للخير من الملائكة إلا ما عليه الفئة الخاسئة المجبرة من تفضيل الإنسان على الملك، وما هو إلا من تعكيسهم للحقائق وجحودهم للعلوم الضرورية ومكابرتهم في كل باب وإعمال ما عمل ليس هي اللغة القدمى الحجازية، وبها ورد القرآن ومنها قوله تعالى: ﴿ما هنّ أمهاتهم﴾[1] ومن قرأ على سليقته من بني تميم قرأ: بشر بالرفع وهي: في قراءة ابن مسعود، وقرئ: ما هذا بشري أي: ما هو بعبد مملوك لئيم ﴿إن هذا إلا ملك كريم﴾ تقول: هذا بشري أي: حاصل بشري بمعنى: هذا مشرى، وتقول: هذا لك بشري أم بكري؟ والقراءة هي الأولى لموافقتها المصحف ومطابقة بشر لملك.

قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾.

﴿قالت فذلكنّ﴾[2] ولم تقل فهذا وهو حاضر رفعًا لمنزلته في الحسن واستحقاق أن يحب ويفتتن به ورباً بحاله واستبعادًا لمحله، ويجوز أن يكون إشارة إلى المعنى بقولهنّ: عشقت عبدها الكنعاني، تقول: هو ذلك العبد الكنعاني الذي صوّرتن في أنفسكنّ ثم لمتنني فيه؛ تعني: أنكن لم تصورنه بحق صورته ولو صوّرتنه بما عاينتن لعذرتنني في الافتتان به. الاستعصام بناء مبالغة يدل على الامتناع البليغ والتحفظ الشديد كأنه في عصمة، وهو يجتهد في الاستزادة منها، ونحوه استمسك واستوسع الفتق واستجمع الرأي واستفحل الخطب، وهذا بيان لما كان من يوسف عليه السلام لا مزيد عليه، وبرهان لا شيء أبرر منه على أنه بريء مما أضاف إليه أهل الحشو مما فسّروا به الهمّ والبرهان.

فإن قُلْتَ: الضمير في ﴿آمره﴾ راجع إلى الموصول أم إلى يوسف؟ **قُلْتُ:** بل إلى الموصول والمعنى: ما آمر به فحذف الجار في قولك: أمرتك الخير ويجوز أن تجعل ما مصدرية فيرجع إلى يوسف ومعناه: ولئن لم يفعل أمري إياه أي موجب أمري ومقتضاه. قرئ وليكونا بالتشديد، والتخفيف، والتخفيف أولى؛ لأنّ النون كتبت في المصحف ألفًا على حكم الوقف وذلك لا يكون إلا في الخفيفة.

قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾.

وقرئ السجن بالفتح على المصدر وقال: ﴿يدعونني﴾ على إسناد الدعوة إليهنّ جميعًا؛ لأنهنّ تنصحن له وزين له مطاوعتها وقلن له: إياك وإلقاء نفسك في السجن والصغار، فالتجأ إلى ربه عند ذلك وقال: ربّ نزول السجن أحبّ إليّ من ركوب المعصية.

فإن قُلْتَ: نزول السجن مشقة على النفس شديدة وما دعونه إليه لذة عظيمة، فكيف كانت المشقة أحبّ إليه من اللذة؟ **قُلْتُ:** كانت أحبّ إليه وآثر عنده نظرًا في حسن الصبر على احتمالها لوجه الله، وفي قبح المعصية وفي عاقبة كل واحدة منهما، لا نظرًا في مشتهى النفس ومكروهها ﴿وإلا تصرف عني كيدهنّ﴾ فزع منه إلى ألطاف الله وعصمته كعادة الأنبياء والصالحين فيما عزم عليه ووطّن عليه نفسه من الصبر، لا أن يطلب منه الإجبار على التعفف والإلجاء إليه ﴿أصب إليهنّ﴾ أمل إليهنّ، والصبوة: الميل إلى الهوى ومنها الصبا؛ لأنّ النفوس تصبوا إليها لطيب نسيمها وروحها، وقرئ: أصب إليهنّ من الصبابة ﴿من الجاهلين﴾ من الذين لا يعملون بما يعلمون؛ لأن من لا جدوى لعلمه فهو ومن لا يعلم سواء، أو من السفهاء؛ لأنّ الحكيم لا يفعل القبيح.

فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾.

وإنما نكر الاستجابة ولم يتقدّم الدعاء؛ لأنّ قوله: ﴿وإلا تصرف عني﴾ فيه معنى طلب الصرف والدعاء باللطف ﴿السميع﴾ لدعوات الملتجئين إليه ﴿العليم﴾ بأحوالهم وما يصلحهم.

ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْـَٔايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾.

﴿بدا لهم﴾ فاعله مضمر لدلالة ما يفسره عليه وهو ﴿ليسجننه﴾ والمعنى: بدا لهم بداء أي: ظهر لهم رأي ليسجننه والضمير في لهم للعزيز وأهله ﴿من بعد ما رأوا الآيات﴾ وهي: الشواهد على براءته وما كان ذلك إلا باستنزال المرأة لزوجها وفتلها منه في الذروة والغارب وكان مطواعة لها وجميلاً ذلولاً زمامه في يدها حتى أنساه ذلك ما عاين من الآيات وعمل برأيها في سجنه، وإلحاق

= الملك عند قائله ليس ضرورياً، ولا عقلياً نظرياً، ولكن سمعياً، وقد قنع في الاستدلال على هذه العقيدة، بالضرورة التي ادعى أنها مركوزة في الطباع، ثم حكم بأن كل مركوز في الطباع حق، وخصوصاً والكلام في طباع النساء القائلات: ما هذا بشراً، وإذا كان كل مركوز في الطباع حقاً، فما ركز فيها حب الشهوات، وإيثار العاجلة، وجميع أمهات الذنوب مركوز في الطباع، أفيكون ذلك حقاً، إلا عند ناظر بعين الهوى، أعشى في سبيل الهدى؟ والله ولي التوفيق.

(1) سورة المجادلة، الآية: 2.

(2) قال أحمد: وبهذا أجبت عما أورده من السؤال في قوله تعالى أوّل البقرة: ﴿الم ذلك الكتاب﴾ لما جعل الإشارة إلى الحروف المذكورة، فقال: إن قلت: كيف أشار إليها وهي قريبة، كما يشار إلى البعيد؟ وأجاب: هو بأن كل متقض بعيد، وأجبت أنا: بأن الإشارة بذلك، إلى بعد منزلة هذا الكتاب، بالنسبة إلى كتب الله تعالى.

الصغار به كما أوعدته به، وذلك لما أيست من طاعته لها أو لطمعها في أن يذلله السجن ويسخره لها، وفي قراءة الحسن: لتسجننه بالتاء على الخطاب خاطب به بعضهم العزيز ومن يليه، أو العزيز وحده على وجه التعظيم ﴿حتى حين﴾ إلى زمان كانها اقترحت أن يسجن زمانًا حتى تبصر ما يكون منه، وفي قراءة ابن مسعود: عتى حين وهي لغة هذيل، وعن عمر رضي الله عنه: أنه سمع رجلاً يقرأ عتى حين فقال: من أقرأك؟ قال: ابن مسعود. فكتب إليه: إن الله أنزل هذا القرآن فجعله عربيًّا وأنزله بلغة قريش، فأقرئ الناس بلغة قريش، ولا تقرئهم بلغة هذيل. والسلام.

وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ ٱلْآخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾.

مع: يدل على معنى الصحبة واستحداثها تقول: خرجت مع الأمير تريد: مصاحبًا له، فيجب أن يكون دخولهما السجن مصاحبين له ﴿فتيان﴾ عبدان للملك خبازه وشرابه، رقي إليه أنهما يسمانه فأمر بهما إلى السجن فادخلا السجن ساعة أدخل يوسف عليه السلام ﴿إني أراني﴾ يعني: في المنام وهي حكاية حال ماضية ﴿أعصر خمرًا﴾ يعني: عنبًا تسمية للعنب بما يؤل إليه، وقيل: الخمر بلغة عمان اسم للعنب، وفي قراءة ابن مسعود: أعصر عنبًا ﴿من المحسنين﴾ من الذين يحسنون عبارة الرؤيا أي: يجيدونها، رأياه يقصّ عليه بعض أهل السجن رؤياه فيؤوّلها له فقالا له ذلك، أو من العلماء لأنهما سمعاه يذكر للناس ما علما به أنه عالم، أو من المحسنين إلى أهل السجن، فأحسن إلينا: بأن تفرّج عنا الغمة بتأويل ما رأينا إن كانت لك يد في تأويل الرؤيا. روي أنه كان إذا مرض رجل منهم قام عليه، وإذا أضاق أوسع له، وإذا احتاج جمع له، وعن قتادة: كان في السجن ناس قد انقطع رجاؤهم، وطال حزنهم، فجعل يقول: أبشروا اصبروا تؤجروا إن لهذا لأجرًا، فقالوا: بارك الله عليك ما أحسن وجهك وما أحسن خلقك لقد بورك لنا في جوارك فمن أنت يا فتى؟ قال: أنا يوسف ابن صفيّ الله يعقوب ابن ذبيح الله إسحاق ابن خليل الله إبراهيم، فقال له عامل السجن: لو استطعت خليت سبيلك ولكني أحسن جوارك فكن في أيّ بيوت السجن شئت. وروي أن الفتيين قالا له: إنا لنحبك من حين رأيناك، فقال: أنشدكما بالله أن لا تحباني فوالله ما أحبني أحد قط إلا دخل عليّ من حبه بلاء. لقد أحبتني عمتي فدخل عليّ من حبها بلاء، ثم أحبني أبي فدخل عليّ من حبه بلاء، ثم أحبتني زوجة صاحبي فدخل عليّ من حبها بلاء، فلا تحباني بارك الله فيكما. وعن الشعبي: أنهما تحالما ليمتحناه، فقال الشرابي: إني أراني في بستان فإذا بأصل حبلة عليها ثلاثة عناقيد من عنب فقطفتها وعصرتها في كأس الملك وسقيته، وقال الخباز: إني أراني وفوق رأسي ثلاث سلال فيها أنواع الأطعمة وإذا سباع الطير تنهش منها.

فإن قُلْتَ: إلام يرجع الضمير في قوله: ﴿نبئنا بتأويله﴾؟ **قُلْتُ:** إلى ما قصا عليه، والضمير يجري مجرى اسم الإشارة في نحوه كأنه قيل: نبئنا بتأويل ذلك.

قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾.

لما استعبراه ووصفاه بالإحسان افترص ذلك فوصل به وصف نفسه بما هو فوق علم العلماء، وهو الإخبار بالغيب وأنه ينبئهما بما يحمل إليهما من الطعام في السجن قبل أن ياتيهما، ويصفه لهما ويقول: اليوم ياتيكما طعام من صفته كيت وكيت فيجدانه كما أخبرهما، وجعل ذلك تخلصًا إلى أن ينكر لهما التوحيد، ويعرض عليهما الإيمان، ويزينه لهما، ويقبح إليهما الشرك بالله وهذه طريقة على كل ذي علم أن يسلكها مع الجهال والفسقة إذا استفتاه واحد منهم، أن يقدم الهداية والإرشاد والموعظة والنصيحة أوّلاً، ويدعوه إلى ما هو أولى به وأوجب عليه مما استفتى فيه، ثم يفتيه بعد ذلك، وفيه: أنّ العالم إذا جهلت منزلته في العلم فوصف نفسه بما هو بصدده وغرضه أن يقتبس منه وينتفع به في الدين لم يكن من باب التزكية ﴿بتأويله﴾ ببيان ماهيته وكيفيته؛ لأنّ ذلك يشبه تفسير المشكل والإعراب عن معناه ﴿ذلكما﴾ إشارة لهما إلى التأويل أي: ذلك التأويل والإخبار بالمغيبات ﴿مما علمني ربي﴾ وأوحى به إليّ ولم أقله عن تكهن وتنجم ﴿إني تركت﴾ يجوز أن يكون كلامًا مبتدأ، أو أن يكون تعليلاً لما قبله، أي: علمني ذلك وأوحى إليّ، لأني رفضت ملة أولئك واتبعت ملة الأنبياء المذكورين وهي: الملة الحنيفية، وأراد بأولئك الذين لا يؤمنون أهل مصر ومن كان الفتيان على دينهم، وتكريرهم للدلالة على أنهم خصوصًا كافرون بالآخرة وأنّ غيرهم كانوا قومًا مؤمنين بها، وهم الذين على ملة إبراهيم ولتوكيد كفرهم بالجزاء تنبيهًا على ما هم عليه من الظلم والكبائر التي لا يرتكبها إلا من هو كافر بدار الجزاء، ويجوز أن يكون فيه تعريض بما مني به من جهتهم حين أودعوه السجن بعد ما رأوا الآيات الشاهدة على براءته، وأنّ ذلك ما لا يقدم عليه إلا من هو شديد الكفر بالجزاء، وذكر آباءه ليريهما أنه من بيت النبوّة بعد أن عرفهما أنه نبي يوحى إليه بما ذكر من إخباره بالغيوب ليقوي رغبتهما في الاستماع إليه واتباع قوله: ﴿ما كان لنا﴾ ما صحّ لنا معشر الأنبياء ﴿أن نشرك بالله﴾ أي شيء كان من ملك، أو جني، أو إنسي، فضلاً أن نشرك به صنمًا لا يسمع ولا يبصر ثم قال: ﴿ذلك﴾ التوحيد ﴿من فضل الله علينا

﴿وعلى الناس﴾ أي: على الرسل، وعلى المرسل إليهم؛ لأنهم نبهوهم عليه وأرشدوهم إليه **﴿ولكن أكثر الناس﴾** المبعوث إليهم **﴿لا يشكرون﴾** فضل الله فيشركون ولا يتنبهون وقيل: إنّ ذلك من فضل الله علينا؛ لأنه نصب لنا الأدلة التي ننظر فيها ونستدلّ بها، وقد نصب مثل تلك الأدلة لسائر الناس من غير تفاوت، ولكن أكثر الناس لا ينظرون ولا يستدلون اتباعًا لأهوائهم فيبقون كافرين غير شاكرين.

يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴿٣٩﴾.

﴿يا صاحبي السجن﴾ يريد: يا صاحبي في السجن فأضافهما إلى السجن كما تقول: يا سارق الليلة، فكما أنّ الليلة مسروق فيها غير مسروقة فكذلك السجن مصحوب فيه غير مصحوب، وإنما المصحوب غيره وهو: يوسف عليه السلام، ونحوه قولك لصاحبيك: يا صاحبَي الصدق فتضيفهما إلى الصدق ولا تريد أنهما صحبا الصدق ولكن كما تقول رجلا صدق وسميتهما صاحبين؛ لأنهم صحباك ويجوز أن يريد: يا ساكنَي السجن، كقوله: **﴿أصحاب النار وأصحاب الجنة﴾**[1] **﴿أأرباب متفرقون﴾** يريد التفرق في العدد والتكاثر يقول: أأن تكون لكما أرباب شتى يستعبد كما هذا ويستعبد كما هذا **﴿خير﴾** لكما **﴿أم﴾** أن يكون لكما رب واحد قهار لا يغالب ولا يشارك في الربوبية بل هو **﴿القهار﴾** الغالب، وهذا مثل ضربه لعبادة الله وحده ولعبادة الأصنام.

مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٤٠﴾.

﴿ما تعبدون﴾ خطاب لهما ولمن على دينهما من أهل مصر **﴿إلا أسماء﴾** يعني: أنكم سميتم ما لا يستحق الإلهية آلهة ثم طفقتم تعبدونها فكأنكم لا تعبدون إلا أسماء فارغة لا مسميات تحتها ومعنى **﴿سميتموها﴾** سميتم بها يقال: سميته بزيد وسميته زيدًا **﴿ما أنزل الله بها﴾** أي: بتسميتها **﴿من سلطان﴾** من حجة **﴿إن الحكم﴾** في أمر العبادة والدين **﴿إلا لله﴾** ثم بين ما حكم به فقال: **﴿أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم﴾** الثابت الذي دلت عليه البراهين.

يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ﴿٤١﴾.

﴿أما أحدكما﴾ يريد الشرابي **﴿فيسقي ربه﴾** سيده، وقرأ عكرمة: فيسقي ربه أي يسقي ما يروي به على البناء للمفعول، روي أنه قال للأوّل: ما رأيت من الكرامة وحسنها هو الملك وحسن حالك عنده، أما القضبان الثلاثة فإنها ثلاثة أيام تمضي في السجن ثم تخرج وتعود إلى ما كنت عليه، وقال للثاني: ما رأيت من السلال ثلاثة أيام ثم تخرج فتقتل **﴿قضي الأمر﴾** قطع وتم ما **﴿تستفتيان﴾** فيه من أمركما وشأنكما.

فإن قُلْتَ: ما استفتيا في أمر واحد بل في أمرين مختلفين فما وجه التوحيد؟ **قُلْتُ:** المراد بالأمر ما اتهما به من سم الملك وما سجنا من أجله وظنا أن ما رأياه في معنى ما نزل بهما، فكأنهما كانا يستفتيانه في الأمر الذي نزل بهما أعاقبته نجاة أم هلاك؟ فقال لهما: **﴿قضي الأمر الذي فيه تستفتيان﴾** أي: ما يجر إليه من العاقبة وهي: هلاك أحدهما ونجاة الآخر، وقيل: جحدا وقالا: ما رأينا شيئًا على ما روي أنهما تحالما له، فأخبرهما أن ذلك كائن صدقتما أو كذبتما.

وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٖ مِّنۡهُمَا ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾.

﴿ظن أنه ناج﴾ الظان هو يوسف إن كان تأويله بطريق الاجتهاد، وإن كان بطريق الوحي فالظان هو الشرابي، أو يكون الظنّ بمعنى اليقين **﴿اذكرني عند ربك﴾** صفني عند الملك بصفتي وقص عليه قصتي لعله يرحمني وينتاشني من هذه الورطة **﴿فأنساه الشيطان﴾** فأنسي الشرابي **﴿ذكر ربه﴾** أن يذكره لربه، وقيل: فأنسي يوسف ذكر الله حين وكل أمره إلى غيره **﴿بضع سنين﴾** البضع ما بين الثلاث إلى التسع، وأكثر الأقاويل على أنه لبث فيه سبع سنين.

فإن قُلْتَ: كيف يقدر الشيطان على الإنساء؟ **قُلْتُ:** يوسوس إلى العبد بما يشغله عن الشيء من أسباب النسيان حتى يذهب عنه ويزل عن قلبه ذكره، وأما الإنساء ابتداء فلا يقدر عليه إلا الله عز وجلّ **﴿ما ننسخ من آية أو ننسها﴾**[2].

فإن قُلْتَ: ما وجه إضافة الذكر إلى ربه إذا أريد به الملك، وما هي إضافة المصدر إلى الفاعل ولا إلى المفعول؟ **قُلْتُ:** قد لابسه في قولك: فأنساه الشيطان ذكره لربه أو عند ربه فجازت إضافته إليه؛ لأن الإضافة تكون أدنى ملابسة، أو على تقدير فأنساه الشيطان نكر إخبار ربه فحذف المضاف الذي هو: الإخبار.

فإن قُلْتَ: لم أنكر على يوسف الاستعانة بغير الله في كشف ما كان فيه وقد قال الله تعالى: **﴿وتعاونوا على البرّ والتقوى﴾**[3] وقال حكاية عن عيسى عليه السلام **﴿من**

(1) سورة الحشر، الآية: 20.

(2) سورة البقرة، الآية: 106.

(3) سورة المائدة، الآية: 2.

أنصاري إلى الله﴾[1] وفي الحديث: «الله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه المسلم». «ومن فرّج عن مؤمن كربة فرّج الله عنه كربة من كرب الآخرة»[2]. وعن عائشة رضي الله عنها: أنّ رسول الله ﷺ لم يأخذه النوم ليلة من الليالي، وكان يطلب من يحرسه حتى جاء سعد فسمعت غطيطه[3]، وهل ذلك إلا مثل التداوي بالأدوية، والتقوي بالأشربة والأطعمة، وإن كان ذلك لأنّ الملك كان كافرًا فلا خلاف في جواز أن يستعان بالكفار في دفع الظلم والغرق والحرق ونحو ذلك من المضار؟ **قُلْتُ:** كما اصطفى الله تعالى الأنبياء على خليقته فقد اصطفى لهم أحسن الأمور وأفضلها وأولاها، والأحسن والأولى بالنبي أن لا يكل أمره إذا ابتلي ببلاء إلا إلى ربه ولا يعتضد إلا به خصوصًا إذا كان المعتضد به كافرًا لئلا يشمت به الكفار ويقولوا: لو كان هذا على الحق وكان له رب يغيثه لما استغاث بنا، وعن الحسن أنه كان يبكي إذا قرأها ويقول: نحن إذا نزل بنا أمر فزعنا إلى الناس.

وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾.

لما نبا فرج يوسف رأى ملك مصر الريان بن الوليد رؤيا عجيبة هالته، رأى سبع بقرات سمان خرجن من نهر يابس وسبع بقرات عجاف فابتلعت العجاف السمان، ورأى سبع سنبلات خضر قد انعقد حبها وسبعًا أخر يابسات قد استحصدت وأدركت فالتوت اليابسات على الخضر حتى غلبن عليها، فاستعبرها فلم يجد في قومه من يحسن عبارتها ﴿سمان﴾ جمع سمين وسمينة وكذلك رجال ونسوة كرام.

فإن قُلْتَ: هل من فرق بين إيقاع سمان صفة للمميز وهو بقرات دون المميز وهو سبع وأن يقال: سبع بقرات سمان؟ **قُلْتُ:** إذا أوقعتها صفة لبقرات فقد قصدت إلى أن تميز السبع بنوع من البقرات وهي السمان منهن لا بجنسهن، ولو وصفت بها السبع لقصدت إلى تمييز السبع بجنس البقرات لا بنوع منها، ثم رجعت فوصفت المميز بالجنس بالسمن.

فإن قُلْتَ: هلا قيل سبع عجاف على الإضافة؟ **قُلْتُ:** التمييز موضوع لبيان الجنس والعجاف وصف لا يقع البيان به وحده.

فإن قُلْتَ: فقد يقولون: ثلاثة فرسان وخمسة أصحاب؟ **قُلْتُ:** الفارس والصاحب والراكب ونحوها صفات جرت مجرى الأسماء فأخذت حكمها وجاز فيها ما لم يجز في غيرها، ألا ترى أنه لم يقل بقرات سبع عجاف لوقوع العلم بأن المراد البقرات؟ **قُلْتُ:** ترك الأصل لا يجوز مع وقوع الاستغناء عما ليس بأصل، وقد وقع الاستغناء بقولك: سبع عجاف عما تقترحه من التمييز بالوصف، والعجف الهزال الذي ليس بعده والسبب في وقوع عجاف جمعًا لعجفاء، وأفعل وفعلاء، لا يجمعان على فعال حمله على سمان لأنه نقيضه، ومن دأبهم حمل النظير على النظير والنقيض على النقيض.

فإن قُلْتَ: هل في الآية دليل على أنّ السنبلات اليابسات كانت سبعًا كالخضر؟ **قُلْتُ:** الكلام مبني على انصبابه إلى هذا العدد في البقرات السمان والعجاف، والسنابل الخضر، فوجب أن يتناول معنى الأخر السبع ويكون قوله: وأخر يابسات بمعنى: وسبعًا أخر.

فإن قُلْتَ: هل يجوز أن يعطف قوله: ﴿وأخر يابسات﴾ على ﴿سنبلات خضر﴾ فيكون مجرور المحل؟ **قُلْتُ:** يؤدي إلى تدافع وهو: أنّ عطفها على سنبلات خضر يقتضي أن تدخل في حكمها فتكون معها مميزًا للسبع المذكورة، ولفظ الأخر يقتضي أن تكون غير السبع بيانه أنك تقول: عندي سبعة رجال قيام وقعود بالجر فيصح؛ لأنك ميزت السبعة برجال موصوفين بالقيام والقعود على أنّ بعضهم قيام وبعضهم قعود، فلو قلت: عنده سبعة رجال قيام وآخرين قعود تدافع ففسد ﴿يا أيها الملأ﴾ كأنه أراد الأعيان من العلماء والحكماء. واللام في قوله: ﴿للرؤيا﴾ إما أن تكون للبيان كقوله: ﴿وكانوا فيه من الزاهدين﴾[4] وإما أن تدخل؛ لأنّ العامل إذا تقدّم عليه معموله لم يكن في قوّته على العمل فيه مثله إذا تأخر عنه فعضد بها كما يعضد بها اسم الفاعل إذا قلت هو عابر للرؤيا لانحطاطه عن الفعل في القوة، ويجوز أن يكون للرؤيا خبر كان كما تقول كان فلان لهذا الأمر إذا كان مستقلاً به متمكنًا منه و﴿تعبرون﴾ خبر آخر أو حال وأن يضمن تعبرون معنى فعل يتعدى باللام كأنه قيل: إن كنتم تنتدبون لعبارة الرؤيا، وحقيقة عبرت الرؤيا: ذكرت عاقبتها وآخر أمرها كما تقول: عبرت النهر إذا قطعته حتى تبلغ آخر عرضه وهو عبره، ونحوه: أولت الرؤيا. إذا ذكرت مآلها وهو مرجعها، وعبرت الرؤيا بالتخفيف: هو الذي اعتمده الأثبات، ورأيتهم ينكرون عبرت بالتشديد والتعبير والمعبر وقد عثرت على بيت أنشده المبرد في كتاب الكامل لبعض

---

(1) سورة آل عمران، الآية: 52، وسورة الصف، الآية: 14.

(2) رواه مسلم في كتاب: الذكر والدعاء، باب: فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر، (الحديث رقم: 6793).

(3) رواه البخاري في كتاب: الجهاد، باب: الحراسة في الغزو... = (الحديث رقم: 2885) ومسلم في كتاب: فضائل الصحابة، باب: في فضل سعد، (الحديث رقم: 6181).

(4) سورة يوسف، الآية: 20.

الأعراب:

رأيت رؤيًا ثم عبرتها وكنت للأحلام عبارًا

قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖۖ وَمَا نَحۡنُ بِتَأۡوِيلِ ٱلۡأَحۡلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾.

﴿أضغاث أحلام﴾ تخاليطها وأباطيلها وما يكون منها من حديث نفس، أو وسوسة شيطان، وأصل الأضغاث ما جمع من أخلاط النبات وحزم، الواحد ضغث، فاستعيرت لذلك، والإضافة بمعنى من أي: أضغاث من أحلام، والمعنى هي أضغاث أحلام.

فإن قُلْتَ: ما هو إلا حلم واحد فلم قالوا: **﴿أضغاث أحلام﴾** فجمعوا؟ **قُلْتُ:** هو كما تقول: فلان يركب الخيل ويلبس عمائم الخز لمن لا يركب إلا فرسًا واحدًا، وما له إلا عمامة فردة تزيدًا في الوصف، فهؤلاء أيضًا تزيدوا في وصف الحلم بالبطلان، فجعلوه أضغاث أحلام، ويجوز أن يكون قد قص عليهم مع هذه الرؤيا رؤيا غيرها **﴿وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين﴾** إما أن يريدوا بالأحلام المنامات الباطلة خاصة[1] فيقولوا ليس لها عندنا تأويل فإن التأويل إنما هو للمنامات الصحيحة الصالحة، وإما أن يعترفوا بقصور علمهم وأنهم ليسوا في تأويل الأحلام بنحارير.

وَقَالَ ٱلَّذِي نَجَا مِنۡهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعۡدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأۡوِيلِهِۦ فَأَرۡسِلُونِ ﴿٤٥﴾.

قرئ **﴿وادّكر﴾** بالدال وهو الفصيح، وعن الحسن: واذكر بالذال المعجمة والأصل تذكر أي: تذكر الذي نجا من الفتيين من القتل يوسف وما شاهد منه **﴿بعد أمّة﴾** بعد مدة طويلة وذلك أنه حين استفتى الملك في رؤياه وأعضل على الملأ تأويلها تذكر الناجي يوسف وتأويله رؤياه ورؤيا صاحبه وطلبه إليه أن يذكره عند الملك، وقرأ الأشهب العقيلي: بعد إمة بكسر الهمزة والأمّة: النعمة قال عدي:

ثم بعد الفلاح والملك والأمـ ـة وارتهم هناك القبور

أي: بعد ما أنعم عليه بالنجاة وقرئ: بعد أمة بعد نسيان يقال: أمه يأمه أمهًا إذا نسي، ومن قرأ: بسكون الميم فقد خطئ **﴿أنا أنبئكم بتأويله﴾** أنا أخبركم به عمن عنده علمه، وفي قراءة الحسن: أنا آتيكم بتأويله **﴿فأرسلون﴾** فابعثوني إليه لأسأله ومروني باستعباره، وعن ابن عباس: لم يكن السجن في المدينة.

يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفۡتِنَا فِي سَبۡعِ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖ لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿٤٦﴾.

المعنى فأرسلوه إلى يوسف فأتاه فقال: **﴿يوسف أيها الصديق﴾** أيها البلغ في الصدق وإنما قال له ذلك؛ لأنه ذاق أحواله وتعرف صدقه في تأويل رؤياه، ورؤيا صاحبه حيث جاء كما أوّل، ولذلك كلمه كلام محترز فقال **﴿لعلي أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون﴾** لأنه ليس على يقين من الرجوع فربما اخترم دونه، ولا من علمهم فربما لم يعلموا، أو معنى لعلهم يعلمون: لعلهم يعلمون فضلك ومكانك من العلم فيطلبوك ويخلصوك من محنتك.

قَالَ تَزۡرَعُونَ سَبۡعَ سِنِينَ دَأَبٗا فَمَا حَصَدتُّمۡ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تَأۡكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ سَبۡعٞ شِدَادٞ يَأۡكُلۡنَ مَا قَدَّمۡتُمۡ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تُحۡصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَامٞ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعۡصِرُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ ﴿٥٠﴾.

﴿تزرعون﴾ خبر في معنى الأمر كقوله: **﴿تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون﴾**[2] وإنما يخرج الأمر في صورة الخبر للمبالغة في إيجاب إيجاد المأمور به فيجعل كأنه يوجد فهو يخبر عنه، والدليل على كونه في معنى الأمر قوله: **﴿فذروه في سنبله﴾** **﴿دأبًا﴾** بسكون الهمزة وتحريكها وهما مصدرا دأب في العمل وهو: حال من المأمورين أي: دائبين، إمّا على تدأبون دأبًا، وإمّا على إيقاع المصدر حالاً بمعنى: ذوي دأب **﴿فذروه في سنبله﴾** لئلا يتسوّس و **﴿ياكلن﴾** من الإسناد المجازي جعل أكل أهلهنّ مسند إليهنّ **﴿تحصنون﴾** تحرزون وتخبؤن **﴿يغاث الناس﴾** من الغوث أو من الغيث يقال: غيثت البلاد إذا مطرت ومنه قول الأعرابية: غثنا ما شئنا **﴿يعصرون﴾** بالياء والتاء يعصرون العنب والزيتون والسمسم، وقيل: يحلبون الضروع، وقرئ يعصرون على البناء للمفعول من عصره إذا أنجاه وهو مطابق للإغاثة، ويجوز أن يكون المعنى للفاعل بمعنى: ينجون كأنه قيل: فيه يغاث الناس، وفيه يغيثون أنفسهم أي: يغيثهم الله ويغيث بعضهم بعضًا، وقيل: يعصرون يمطرون من أعصرت السحابة وفيه وجهان: إمّا: أن يضمن أعصرت معنى: مطرت فيعدّى تعديته، وإمّا: أن يقال: الأصل أعصرت عليهم فحذف الجار وأوصل الفعل. تأوّل البقرات السمان والسنبلات الخضر بسنين مخاصيب، والعجاف واليابسات بسنين مجدبة، ثم بشرهم بعد الفراغ من تأويل الرؤيا بأنّ العام الثامن يجيء مباركًا خصيبًا كثير الخير غزير النعم وذلك من جهة الوحي، وعن قتادة: زاده الله علم سنة.

---

(1) قال أحمد: وهذا هو الظاهر، وحمل للكلام على الأوّل يصيره من وادي، على لا حب يهتدى بمناره. كانهم قالوا: لا تأويل للأحلام الباطلة، فنكون عالمين، وقول الملك لهم أوّلاً: إن كنتم للرؤيا تعبرون، دليل على أنهم لم يكونوا في علمه عالمين بها؛ لأنه أتى بكلمة الشك، وجاء اعترافهم بالقصور، مطابقاً لشك الملك، الذي=

= أخرجه مخرج استفهامهم عن كونهم عالمين بالرؤيا، أو لا، وقول الفتى: أنا أنبئكم بتأويله، إلى قوله لعلي أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون، دليل أيضاً على ذلك، والله أعلم.

(2) سورة الصف، الآية: 11.

فإن قُلْتَ:معلوم أنّ السنين المجدبة إذا انتهت كان انتهاؤها بالخصب وإلا لم توصف بالانتهاء، فلم قلت إن علم ذلك من جهة الوحي؟ **قُلْتُ**:ذلك معلوم علمًا مطلقًا لا مفصلاً وقوله: **﴿فيه يغاث الناس وفيه يعصرون﴾** تفصيل لحال العام وذلك لا يعلم إلا بالوحي. إنما تأتي وتثبت في إجابة الملك[1]، وقدّم سؤال النسوة ليظهر براءة ساحته عما قرف به وسجن فيه لئلا يتسلق به الحاسدون إلى تقبيح أمره عنده ويجعلوه سلمًا إلى حط منزلته لديه ولئلا يقولوا: ما خلد في السجن سبع سنين إلا لأمر عظيم وجرم كبير حق به أن يسجن ويعذب ويستكّف شرّه، وفيه دليل على أنّ الاجتهاد في نفي التهم واجب وجوب اتقاء الوقوف في مواقفها قال عليه السلام: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يقفنّ مواقف التهم»[2] ومنه قال رسول الله ﷺ للمارّين به في معتكفه وعنده بعض نسائه «هي فلانة»[3] اتقاء للتهمة. وعن النبي ﷺ: «لقد عجبت من يوسف وكرمه وصبره والله يغفر له حين سئل عن البقرات العجاف والسمان، ولو كنت مكانه ما أخبرتهم حتى اشترط أن يخرجوني، ولقد عجبت منه حين أتاه الرسول فقال: ارجع إلى ربك ولو كنت مكانه ولبثت في السجن ما لبثت لأسرعت الإجابة وبادرتهم الباب ولما ابتغيت العذر»[4] إن كان لحليمًا ذا أناة وإنما قال: سل الملك عن حال النسوة ولم يقل: سله أن يفتش عن شأنهنّ؛ لأنّ السؤال مما يهيج الإنسان ويحرّكه للبحث عما سئل عنه، فأراد أن يورد عليه السؤال ليجدّ في التفتيش عن حقيقة القصة وقصّ الحديث حتى يتبين له براءته بيانًا مكشوفًا يتميز فيه الحق من الباطل. وقرئ: النسوة بضم النون، ومن كرمه وحسن أدبه أنه لم يذكر سيدته مع ما صنعت به وتسببت فيه من السجن والعذاب واقتصر على ذكر المقطعات أيديهنّ **﴿إنّ ربي﴾** إنّ الله تعالى **﴿بكيدهنّ عليم﴾** أراد أنه كيد عظيم لا يعلمه إلا الله لبعد غوره، أو استشهد بعلم الله على أنّهنّ كذبنه وأنه بريء مما قرف به، أو أراد الوعيد لهنّ أي: هو عليم بكيدهنّ فمجازيهنّ عليه.

قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾.

﴿ما خطبكنّ﴾ ما شأنكنّ **﴿إذ راودتنّ يوسف﴾** هل وجدتنّ منه ميلاً إليكنّ **﴿قلن حاش لله﴾** تعجبًا من عفته وذهابه بنفسه عن شيء من الريبة ومن نزاهته عنها **﴿قالت امرأت العزيز الآن حصحص الحق﴾** أي: ثبت واستقرّ، وقرئ حصحص على البناء للمفعول وهو من حصحص البعير إذا ألقى ثفناته للإناخة قال:

فحصحص في صم الصفا ثفناته[5] وناء بسلمى نوءة ثم صمما

ولا مزيد على شهادتهنّ له بالبراءة والنزاهة[6] واعترافهنّ على أنفسهنّ بأنه لم يتعلق بشيء مما قرفته به لأنهنّ خصومه، وإذا اعترف الخصم بأنّ صاحبه على الحق وهو على الباطل لم يبق لأحد مقال، وقالت المجبرة والحشوية: نحن قد بقي لنا مقال ولابدّ لنا من أن ندق في فروة من ثبتت نزاهته.

ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾.

﴿ذلك ليعلم﴾ [7]من كلام يوسف أي: ذل التثبت والتشمر لظهور البراءة ليعلم العزيز **﴿أني لم أخنه﴾** بظهر الغيب في حرمته. ومحل **﴿بالغيب﴾** الحال من الفاعل أو المفعول على معنى وأنا غائب عنه خفي عن عينه، أو وهو غائب عني خفيّ عن عيني، ويجوز أن يكون ظرفًا أي: بمكان الغيب وهو: الخفاء والاستتار وراء الأبواب السبعة المغلقة **﴿و﴾** ليعلم **﴿أن الله لا يهدي كيد الخائنين﴾** لا ينفذه ولا يسدده وكأنه تعريض بامرأته في خيانتها أمانة زوجها وبه في خيانته أمانة الله حين ساعدها بعد ظهور الآيات على حبسه، ويجوز أن يكون تأكيدًا لأمانته وأنه لو كان خائنًا لما هدى الله كيده ولا سدده.

❁ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾.

---

(1) قال أحمد: ولقد مدحه النبي ﷺ على هذه الأناة بقوله: «ولو لبثت في السجن بعض ما لبث يوسف، لأجبت الداعي»، وكان في طي هذه المدحة بالأناة والتثبت، تنزيهه، وتبرئته، مما لعله يسبق إلى الوهم، من أنه همّ بزليخا هماً يؤاخذ به؛ لأنه إذا صبر، وتثبت فيما له أن لا يصبر فيه، وهو الخروج من السجن، مع أنّ الدواعي متوفرة على الخروج منه، فلأن يصبر فيما عليه أن يصبر فيه من الهم، أولى وأجدر، والله أعلم.

(2) يأتي في سورة الأحزاب.

(3) رواه البخاري في كتاب: الاعتكاف، باب: زيارة المرأة زوجها في اعتكافه، (الحديث رقم: 2038) ومسلم في كتاب: السلام باب: بيان أنه يستحب لمن رؤي خاليًا بامرأة.. (الحديث رقم: 5643).

(4) الطبري، وإسحاق بن راهويه وعبد الرزاق في تفسيره (الزيلعي) 2/ 168.

(5) ثفناته: هي ما يقع على الأرض من أعضاء البعير إذا استناخ وغلظ كالركبتين وغيرهما، كذا في الصحاح.

(6) قال أحمد: الصحيح من مذاهب أهل السنة، تنزيه أهل الأنبياء عن الكبائر والصغائر جميعاً، وتتعب الآي المشعرة بوقوع الصغائر بالتأويل، وذهب منهم طائفة مع القدرية، إلى تجويز الصغائر عليهم، بشرط أن لا تكون منفرة، والصحيح عندنا في قصة يوسف عليه السلام، أنه مبرأ عن الوقوع فيما يؤاخذ به، وإن الوقف عند قوله: همت به، ثم يبتدأ وهمّ بها، لولا أن رأى برهان ربه، كما تقول: قتلت زيداً، لولا أنني أخاف الله، فلا يكون الهمّ واقعاً لوجود المانع معه، وهو: رؤية البرهان، فإن كان الزمخشري يعرّض بأهل السنة، فقد بينا معتقدهم، وإن كان يعرض بالمجبرة والحشوية حقيقة، فشأنه وإياهم.

(7) قال أحمد: وإرادته لعموم الأحوال، أدخل في تنزيهه، وأدل على أن الغرض بهذا الكلام التواضع منه، من التبري من تزكية النفس، فهو أدل على هذا المعنى، من حمله على الحادثة الخاصة، والله أعلم.

ثم أراد أن يتواضع لله ويهضم نفسه لئلا يكون لها مزكيًا وبحالها في الأمانة معجبًا ومفتخرًا، كما قال رسول الله ﷺ: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر»[1] وليبين أن ما فيه من الأمانة ليس به وحده وإنما هو بتوفيق الله ولطفه وعصمته فقال ﴿وما أبرئ نفسي﴾ من الزلل وما أشهد لها بالبراءة الكلية لا أزكيها، ولا يخلو إمّا أن يريد في هذه الحادثة لما نكرنا من الهمّ الذي هو ميل النفس عن طريق الشهوة البشرية لا عن طريق القصد والعزم، وإمّا أن يريد عموم الأحوال ﴿إن النفس لأمّارة بالسوء﴾ أراد الجنس أي: إنّ هذا الجنس يأمر بالسوء ويحمل عليه بما فيه من الشهوات ﴿إلا ما رحم ربي﴾ إلا البعض الذي رحمه ربي بالعصمة كالملائكة، ويجوز أن يكون ما رحم في معنى الزمان أي إلا وقت رحمة ربي يعني: أنها أمارة بالسوء في كل وقت وأوان إلا وقت العصمة ويجوز أن يكون استثناء منقطعًا أي: ولكن رحمة ربي هي التي تصرف الإساءة كقوله: ﴿ولا هم ينقذون * إلا رحمة﴾[2] وقيل معناه: ذلك ليعلم أني لم أخنه؛ لأنّ المعصية خيانة، وقيل[3]: هو من كلام امرأة العزيز أي: ذلك الذي قلت ليعلم يوسف أني لم أخنه ولم أكذب عليه في حال الغيبة، وجئت بالصحيح والصدق فيما سئلت عنه، وما أبرئ نفسي مع ذلك من الخيانة فإني قد خنته حين فرقته وقلت: ﴿ما جزاء من أراد بأهلك سوءًا إلا أن يسجن﴾[4] وأودعته السجن، تريد الاعتذار مما كان منها، إنّ كل نفس لأمّارة بالسوء إلا ما رحم ربي إلا نفسًا رحمها الله بالعصمة كنفس يوسف ﴿إنّ ربي غفور رحيم﴾ استغفرت ربها واسترحمته مما ارتكبت.

فإن قُلْتَ: كيف صح أن يجعل من كلام يوسف ولا دليل على ذلك؟ **قُلْتُ:** كفى بالمعنى دليلاً قائلاً إلى أن يجعل من كلامه ونحوه قوله: ﴿قال الملأ من قوم فرعون إن هذا لساحر عليم﴾[5] ﴿يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره﴾[6] ثم قال: ﴿فماذا تأمرون﴾[7] وهو من كلام فرعون يخاطبهم ويستشيرهم، وعن ابن جريج: هذا من تقديم القرآن وتأخيره ذهب إلى أن ذلك ليعلم متصل بقوله: ﴿فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهنّ﴾[8] ولقد لفقت المبطلة روايات مصنوعة[9] فزعموا أن يوسف حين قال: إني لم أخنه بالغيب، وقال له جبريل: ولا حين هممت بها؟ وقالت له امرأة العزيز: ولا حين حللت تكة سراويلك يا يوسف؟ ونلك لتهالكهم على بهت الله ورسله.

وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾.

يقال: استخلصه واستخصه: إذا جعله خالصًا لنفسه وخاصًا به ﴿فلما كلمه﴾ وشاهد منه ما لم يحتسب ﴿قال﴾ أيها الصديق ﴿إنك اليوم لدينا مكين﴾ ذو مكانة ومنزلة ﴿أمين﴾ مؤتمن على كل شيء، وروي: أنّ الرسول جاءه فقال: أجب الملك، فخرج من السجن ودعا لأهله: اللهم اعطف عليهم قلوب الأخيار ولا تعم عليهم الأخبار، فهم أعلم الناس بالأخبار في الواقعات، وكتب على باب السجن: هذه منازل البلوى، وقبور الأحياء، وشماتة الأعداء، وتجربة الأصدقاء، ثم اغتسل وتنظف من درن السجن ولبس ثيابًا جددًا، فلما دخل على الملك قال: اللهم إني أسألك بخيرك من خيره، وأعوذ بعزتك وقدرتك من شره، ثم سلم عليه ودعا له بالعبرانية، فقال: ما هذا اللسان؟ قال: لسان آبائي، وكان الملك يتكلم بسبعين لسانًا فكلمه بها فأجابه بجميعها، فتعجب منه وقال: أيها الصديق إني أحب أن أسمع رؤياي منك، فقال: رأيت بقرات فوصف لونهنّ وأحوالهنّ ومكان خروجهنّ، ووصف السنابل وما كان منها على الهيئة التي رآها الملك لا يخرم منها حرفًا، وقال له: من حقك أن تجمع الطعام في الأهراء، فيأتيك الخلق من النواحي، يمتارون منك، ويجتمع لك من الكنوز ما لم يجتمع لأحد قبلك.

قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾.

﴿اجعلني على خزائن الأرض﴾ ولِّني خزائن أرضك ﴿إني حفيظ عليم﴾ أمين أحفظ ما تستحفظنيه، عالم بوجوه التصرف وصفًا لنفسه بالأمانة والكفاية اللتين هما

---

(1) رواه مسلم في كتاب الفضائل، باب: تفضيل نبينا ﷺ على جميع الخلائق (الحديث رقم: 5899) وابن حبان في كتاب: التاريخ، باب: بدء الخلق (الحديث رقم: 6242) والترمذي في كتاب: المناقب، باب: في فضل النبي ﷺ (الحديث رقم: 3615).

(2) سورة يّس، الآيتان: 43، 44.

(3) قال أحمد: وإنما يجري الكلام على هذا الوجه، إذا ألجا إليه محوج، كقوله: فماذا تأمرون إذ لا يمكن جعله من قول الملا بوجه، فتعين أن يصرف الضمير عنه إلى فرعون، وأما هذه الآية، فهي تتلو قوله وإنه لمن الصادقين إلى ما قبل ذلك من الضمائر العائدة إلى يوسف عليه السلام قطعاً ولا ضرورة تدعو إلى حمل الضمير في: ليعلم على العزيز، وجعله من كلام يوسف، وقد تضمنته الآية المصدرة بقول زليخا، ونلك قوله: قالت امرأة العزيز، وفي سياق الآية ما يرشد إلى أن هذا القول جرى منها، ويوسف عليه السلام بعد في السجن لم يحضر إلى الملك، وأنه لما تحتمت براءته = بقولها، بعث يخرجه من السجن، فنلك قوله: ﴿وقال الملك ائتوني به أستخلصه لنفسي﴾.

(4) سورة يوسف، الآية: 25.

(5) سورة الأعراف، الآية: 109.

(6) سورة الشعراء، الآية: 35.

(7) سورة الأعراف، الآية 11.

(8) سورة يوسف، الآية: 50.

(9) قال أحمد: ولقد صدق في التوريك على ما نقلة هذه الزيادات بالبهت، ونلك شأن المبطلة من كل طائفة، كما لفقت القدرية على قصة موسى، حين طلب الرؤية وخرّ صعقاً، أنّ الملائكة جعلت تلكزه بأرجلها، وتقول: يا ابن النساء الحيض، طمعت في رؤية ربّ العزة، كل نلك ليتمّ لهم غرضهم، في أنه طلب لهم محالاً في العقول على الله تعالى، ويحقّ الله الحقّ بكلماته، ويبطل الباطل، والله الموفق.

طلبة الملوك ممن يولونه، وإنما قال ذلك ليتوصل إلى إمضاء أحكام الله تعالى، وإقامة الحق وبسط العدل، والتمكن مما لأجله تبعث الأنبياء إلى العباد، ولعلمه أن أحدًا غيره لا يقوم مقامه في ذلك، فطلب التولية ابتغاء وجه الله لا لحب الملك والدنيا، وعن النبي ﷺ: «رحم الله أخي يوسف، لو لم يقل اجعلني على خزائن الأرض لاستعمله من ساعته، ولكنه أخر ذلك سنة»[1].

فإن قُلْتَ: كيف جاز أن يتولى عملاً من يد كافر ويكون تبعًا له وتحت أمره وطاعته؟ **قُلْتُ:** روى مجاهد: أنه كان قد أسلم، وعن قتادة: هو دليل على أنه يجوز أن يتولى الإنسان عملاً من يد سلطان جائر. وقد كان السلف يتولون القضاء من جهة البغاة ويرونه، وإذا علم النبي أو العالم أنه لا سبيل إلى الحكم بأمر الله ودفع الظلم إلا بتمكين الملك الكافر أو الفاسق، فله أن يستظهر به، وقيل: كان الملك يصدر عن رأيه ولا يعترض عليه في كل ما رأى، فكان في حكم التابع له والمطيع.

وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾.

﴿وكذلك﴾ ومثل ذلك التمكين الظاهر **﴿مكنا ليوسف﴾** في أرض مصر، روي أنها كانت أربعين فرسخًا في أربعين **﴿يتبوأ منها حيث يشاء﴾** قرئ: بالنون والياء أي: كل مكان أراد أن يتخذه منزلاً ومتبوأ له لم يمنع منه لاستيلائه على جميعها ودخوله تحت ملكته وسلطانه، وروي أنّ الملك توجه وختمه بخاتمة ورداه بسيفه ووضع له سريرًا من ذهب مكللاً بالدر والياقوت، وروي أنه قال له: أما السرير فأشد به ملكك، وأما الخاتم فأدبر به أمرك، وأما التاج فليس من لباسي ولا لباس آبائي، فقال: قد وضعته إجلالاً لك وإقرارًا بفضلك، فجلس على السرير، ودانت له الملوك، وفوض الملك إليه أمره، وعزل قطفير ثم مات بعد فزوجه الملك امرأته زليخا، فلما دخل عليها قال: أليس هذا خيرًا مما طلبت؟ فوجدها عذراء، فولدت له ولدين: إفرائيم وميشا، وأقام العدل بمصر، وأحبته الرجال والنساء، وأسلم على يديه الملك وكثير من الناس، وباع من أهل مصر في سني القحط الطعام بالدنانير والدراهم في السنة الأولى حتى لم يبق معهم شيء منها، ثم بالحلي والجواهر، ثم بالدواب، ثم بالضياع والعقار، ثم برقابهم حتى استرقهم جميعًا، فقالوا: والله ما رأينا كاليوم ملكًا أجل ولا أعظم منه، فقال للملك: كيف رأيت صنع الله بي فيما خولتني فما ترى؟ قال: الرأي رأيك. قال: فإني أشهد الله وأشهدك أني أعتقت أهل مصر عن آخرهم، ورددت عليهم أملاكهم، وكان لا يبيع من أحد من الممتارين أكثر من حمل بعير تقسيطًا بين الناس. وأصاب أرض كنعان وبلاد الشام نحو ما أصاب أرض مصر، فأرسل يعقوب بنيه ليمتاروا واحتبس بنيامين **﴿برحمتنا﴾** بعطائنا في الدنيا من الملك والغنى وغيرهما من النعم **﴿من نشاء﴾** من اقتضت الحكمة أن نشاء له ذلك **﴿ولا نضيع أجر المحسنين﴾** أن نأجرهم في الدنيا **﴿ولأجر الآخرة خير﴾** لهم، قال سفيان بن عيينة: المؤمن يثاب على حسناته في الدنيا والآخرة، والفاجر يعجل له الخير في الدنيا وماله في الآخرة من خلاق وتلا هذه الآية.

وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾.

لم يعرفوه[2] لطول العهد ومفارقته إياهم في سنّ الحداثة، ولاعتقادهم أنه قد هلك، ولذهابه عن أوهامهم لقلة فكرهم فيه واهتمامهم بشأنه، ولبعد حاله التي بلغها من الملك والسلطان عن حاله التي فارقوه عليها طريحًا في البئر مشرفًا بدراهم معدودة، حتى لو تخيل لهم أنه هو لكذبوا أنفسهم وظنونهم، ولأن الملك مما يبدّل الزيّ ويلبس صاحبه من التهيب والاستعظام ما ينكر له المعروف، وقيل: رأوه على زيّ فرعون عليه ثياب الحرير جالسًا على سرير في عنقه طوق من ذهب وعلى رأسه تاج فما خطر ببالهم أنه هو، وقيل: ما رأوه إلا من بعيد بينهم وبينه مسافة وحجاب، وما وقفوا إلا حيث يقف طلاب الحوائج، وإنما عرفهم لأنه فارقهم وهم رجال، ورأى زيهم قريبًا من زيهم إذ ذاك؛ ولأنّ همته كانت معقودة بهم وبمعرفتهم فكان يتأمّل ويتفطن، وعن الحسن: ما عرفهم حتى تعرفوا له.

وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾.

﴿ولما جهزهم بجهازهم﴾ أي: أصلحهم بعدتهم وهي عدّة السفر من الزاد وما يحتاج إليه المسافرون وأوقر ركائبهم بما جاؤا من الميرة، وقرئ: بجهازهم بكسر الجيم **﴿قال ائتوني باخ لكم من أبيكم﴾** لابدّ من مقدمة سبقت له معهم حتى اجترّ القول هذه المسألة، وروي: أنه لما رآهم وكلموه بالعبرانية قال لهم: أخبروني من أنتم وما شأنكم فإني أنكركم؟ قالوا: نحن قوم من أهل الشام رعاة أصابنا الجهد فجئنا نمتار، فقال: جئتم عيونًا تنظرون عورة بلادي؟ قالوا: معاذ الله نحن إخوة بنو أب واحد وهو شيخ صديق نبي من الأنبياء اسمه يعقوب، قال: كم أنتم؟ قالوا: كنا اثني عشر فهلك منا واحد، قال: فكم أنتم ههنا؟ قالوا: عشرة، قال: فأين الأخ الحادي عشر؟ قالوا: هو عند أبيه يتسلى به من الهالك. قال: فمن يشهد لكم أنكم لستم بعيون، وأن الذي تقولون حق؟ قالوا: إننا ببلاد لا يعرفنا

---

(1) أخرجه الثعالبي والواحدي في تفسيره.

(2) قال أحمد: وتوارد القادمين في دخولهم عليه، ومعرفته لهم، عند = ذلك تدل على أنّ مجرد دخولهم عليه، استعقبته المعرفة بلا مهلة، والله أعلم.

فيها أحد فيشهد لنا. قال: فدعوا بعضكم عندي رهينة وائتوني بأخيكم من أبيكم وهو يحمل رسالة من أبيكم حتى أصدقكم، فاقترعوا بينهم فأصابت القرعة شمعون، وكان أحسنهم رأيًا في يوسف فخلفوه عنده، وكان قد أحسن إنزالهم وضيافتهم ﴿ولا تقربون﴾ فيه وجهان: أحدهما: أن يكون داخلاً في حكم الجزاء مجزومًا عطفًا على محل قوله: ﴿فلا كيل لكم﴾ كأنه قيل: فإن لم تأتوني به تحرموا ولا تقربوا، وأن: يكون بمعنى النهي ﴿سنراود عنه أباه﴾ سنخادعه عنه وسنجتهد ونحتال حتى ننتزعه من يده ﴿وإنا لفاعلون﴾ وإنا لقادرون على ذلك لا نتعايا به، أو وإنا لفاعلون ذلك لا محالة لا نفرط فيه ولا نتوانى.

وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾.

﴿لفتيته﴾ قرئ: لفتيانه وهما جمع فتى كإخوة وإخوان في أخ، وفعلة للقلة وفعلان للكثرة، أي: لغلمانه الكياليين ﴿لعلهم يعرفونها﴾ لعلهم يعرفون حق ردّها وحق التكرم بإعطاء البدلين ﴿إذا انقلبوا إلى أهلهم﴾ وفرغوا ظروفهم ﴿لعلهم يرجعون﴾ لعل معرفتهم بذلك تدعوهم إلى الرجوع إلينا، وكانت بضاعتهم النعال والأدم، وقيل: تخوف أن لا يكون عند أبيه من المتاع ما يرجعون به، وقيل: لم ير من الكرم أن يأخذ من أبيه وإخوته ثمنًا، وقيل: علم أن ديانتهم تحملهم على رد البضاعة لا يستحلون إمساكها فيرجعون لأجلها، وقيل: معنى ﴿لعلهم يرجعون﴾ لعلهم يردونها.

فَلَمَّا رَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾.

﴿منع منا الكيل﴾ يريدون قول يوسف: ﴿فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي﴾ لأنهم إذا أنذروا بمنع الكيل فقد منع الكيل ﴿نكتل﴾ نرفع المانع من الكيل ونكتل من الطعام ما نحتاج إليه، وقرئ: يكتل بمعنى: يكتل أخونا فينضم اكتياله إلى اكتيالنا، أو يكن سببا للاكتيال فإن امتناعه بسببه.

قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾.

﴿هل آمنكم عليه﴾ يريد أنكم قلتم في يوسف ﴿وإنا له لحافظون﴾[1] كما تقولونه في أخيه خنتم بضمانكم، فما يؤمنني من مثل ذلك؟ ثم قال: ﴿فالله خير حافظًا﴾ فتوكل على الله فيه ودفعه إليهم، وحافظًا تمييز كقوله: هو خيرهم رجلاً، ولله درّه فارسًا، ويجوز أن يكون حالاً وقرئ: حفظًا، وقرأ الأعمش: فالله خير حافظ، وقرأ أبو هريرة: خير الحافظين ﴿وهو أرحم الراحمين﴾ فأرجو أن ينعم عليّ بحفظه ولا يجمع عليّ مصيبتين.

وَلَمَّا فَتَحُوا۟ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾.

وقرئ: ردت إلينا بالكسر على أن كسرة الدال المدغمة نقلت إلى الراء كما في قيل وبيع، وحكي قطرب: ضرب زيد على نقل كسرة الراء فيمن سكنها إلى الضاد ﴿ما نبغي﴾ للنفي أي: في القول وما نتزيد فيما وصفنا لك من إحسان الملك وإكرامه، وكانوا قالوا له: إنا قدمنا على خير رجل، أنزلنا وأكرمنا كرامة لو كان رجلاً من آل يعقوب ما أكرمنا كرامته، أو ما نبتغي شيئًا وراء ما فعل بنا من الإحسان، أو على الاستفهام بمعنى: أي شيء نطلب وراء هذا، وفي قراءة ابن مسعود: ما تبغي بالتاء على مخاطبة يعقوب، معناه أي شيء تطلب وراء هذا من الإحسان أو من الشاهد على صدقنا، وقيل معناه: ما نريد منك بضاعة أخرى وقوله: ﴿هذه بضاعتنا ردت إلينا﴾ جملة مستأنفة موضحة لقوله: ﴿ما نبغي﴾ والجمل بعدها معطوفة عليها على معنى إن بضاعتنا رُدت إلينا فنستظهر بها ﴿ونمير أهلنا﴾ في رجوعنا إلى الملك ﴿ونحفظ أخانا﴾ فما يصيبه شيء مما تخافه، ونزداد باستصحاب أخينا وسق بعير زائدًا على أوساق أباعرنا، فأي شيء نبتغي وراء هذه المباغي التي نستصلح بها أحوالنا ونوسع ذات أيدينا، وإنما قالوا: ﴿ونزداد كيل بعير﴾ لما ذكرنا أنه كان لا يزيد للرجل على حمل بعير للتقسيط.

فإن قُلْتَ: هذا إذا فسرت البغي بالطلب، فأما إذا فسرته بالكذب والتزيد في القول كانت الجملة الأولى وهي قوله: ﴿هذه بضاعتنا ردّت إلينا﴾ بيانًا لصدقهم، وانتفاء التزيد عن قيلهم فما تصنع بالجمل البواقي؟ **قُلْتُ:** أعطفها على قوله ﴿ما نبغي﴾ على معنى لا نبغي فيما نقول ونمير أهلنا ونفعل كيت وكيت، ويجوز أن يكون كلامًا مبتدأ كقولك: وينبغي أن نمير أهلنا كما تقول: سعيت في حاجة فلان واجتهدت في تحصيل غرضه، ويجب أن أسعى وينبغي لي أن لا أقصر، ويجوز أن يراد ما نبغي وما ننطق إلا بالصواب فيما نشير به عليك من تجهيزنا مع أخينا، ثم قالوا: هذه بضاعتنا نستظهر بها ونمير أهلنا ونفعل ونصنع بيانًا لأنهم لا يبغون في رأيهم وأنهم مصيبون فيه وهو وجه حسن واضح ﴿ذلك كيل يسير﴾ أي: ذلك مكيل قليل لا يكفينا يعنون ما يكال لهم، فأرادوا أن يزدادوا إليه ما يكال لأخيهم، أو يكون ذلك إشارة إلى كيل بعير أي: ذلك الكيل شيء قليل يجيبنا إليه الملك ولا يضايقنا فيه، أو سهل عليه متيسر لا يتعاظمه، ويجوز أن يكون من كلام يعقوب وأن حمل بعير واحد شيء يسير

(1) سورة يوسف، الآية: 12.

لا يخاطر لمثله بالولد كقوله: ﴿ذلك ليعلم﴾[1].

قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ۖ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾.

﴿لن أرسله معكم﴾[2] مناف لحالي وقد رأيت منكم ما رأيت إرساله معكم ﴿حتى تؤتون موثقًا من الله﴾ حتى تعطوني ما أتوثق به من عند الله، أراد أن يحلفوا له بالله، وإنما جعل الحلف بالله موثقًا منه لأن الحلف به مما تؤكد به العهود وتشدد، وقد أذن الله في ذلك فهو إذن منه ﴿لتاتنني به﴾ جواب اليمين؛ لأن المعنى حتى تحلفوا لتاتنني به ﴿إلا أن يحاط بكم﴾[3] إلا أن تغلبوا فلم تطيقوا الإتيان به أو إلا أن تهلكوا.

فإن قُلْتَ: أخبرني عن حقيقة هذا الاستثناء فيه إشكال؟ **قُلْتُ:** ﴿أن يحاط بكم﴾ مفعول له والكلام المثبت الذي هو قوله: ﴿لتاتنني به﴾ في تأويل النفي معناه: لا تمتنعون من الإتيان به إلا للإحاطة بكم أي: لا تمتنعون منه لعلة من العلل إلا لعلة واحدة وهي أن يحاط بكم فهو استثناء من أعم العام في المفعول له، والاستثناء من أعم العام لا يكون إلا في النفي وحده فلابد من تأويله بالنفي، ونظيره من الإثبات المتأوّل بمعنى النفي قولهم: أقسمت بالله لما فعلت وإلا فعلت تريد: ما أطلب منك إلا الفعل ﴿على ما نقول﴾ من طلب الموثق وإعطائه ﴿وكيل﴾ رقيب مطلع.

وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾.

وإنما نهاهم أن يدخلوا من باب واحد؛ لأنهم كانوا ذوي بهاء وشارة حسنة اشتهرهم أهل مصر بالقربة عند الملك والتكرمة الخاصة التي لم تكن لغيرهم، فكانوا مظنة لطموح الأبصار إليهم من بين الوفود وأن يشار إليهم بالأصابع ويقال: هؤلاء أضياف الملك، انظروا إليهم ما أحسنهم من فتيان، وما أحقهم بالإكرام، لأمر ما أكرمهم الملك وقربهم وفضلهم على الوافدين عليه، فخاف لذلك أن يدخلوا كوكبة واحدة فيعانوا لجمالهم وجلالة أمرهم في الصدور فيصيبهم ما يسوؤهم، ولذلك لم يوصهم بالتفرق في الكرّة الأولى؛ لأنهم كانوا مجهولين مغمورين بين الناس.

فإن قُلْتَ: هل للإصابة بالعين وجه تصحّ عليه؟ **قُلْتُ:** يجوز أن يحدث الله عز وجل عند النظر إلى الشيء والإعجاب به نقصانًا فيه وخللاً من بعض الوجوه ويكون ذلك ابتلاء من الله وامتحانًا لعباده ليتميز المحققون من أهل الحشو فيقول المحقق: هذا فعل الله، فيقول الحشوي: هو أثر العين كما قال تعالى: ﴿وما جعلنا عدّتهم إلا فتنة للذين كفروا﴾[4] الآية. وعن النبي ﷺ: «إنه كان يعوذ الحسن والحسين فيقول: أعيذكما بكلمات الله التامة من كل عين لامة ومن كل شيطان وهامة»[5]. ﴿وما أغني عنكم من الله من شيء﴾ يعني: إن أراد الله بكم سوءًا لم ينفعكم ولم يدفع عنكم ما أشرت به عليكم من التفرق وهو مصيبكم لا محالة ﴿إن الحكم إلا لله﴾ ثم قال ﴿ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم﴾ أي: متفرّقين ﴿ما كان يغني عنهم﴾ رأى يعقوب ودخولهم متفرّقين شيئًا قط حيث أصابهم ما ساءهم مع تفرّقهم، من إضافة السرقة إليهم، وافتضاحهم بذلك، وأخذ أخيهم بوجدان الصواع في رحله، وتضاعف المصيبة على أبيهم ﴿إلا حاجة﴾ استثناء منقطع على معنى ولكن حاجة ﴿في نفس يعقوب قضاها﴾ وهي شفقته عليهم وإظهارها بما قاله لهم ووصاهم به ﴿وإنه لذو علم﴾ يعني قوله: ﴿وما أغني عنكم﴾ وعلمه بأن القدر لا يغني عنه الحذر.

وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾.

﴿آوى إليه أخاه﴾ ضم إليه بنيامين، وروي أنهم قالوا له: هذا أخونا قد جئناك به، فقال لهم: أحسنتم وأصبتم وستجدون ذلك عندي، فأنزلهم وأكرمهم ثم أضافهم وأجلس كل اثنين منهم على مائدة، فبقي بنيامين وحده فبكى وقال: لو كان أخي يوسف حيًا لأجلسني معه، فقال

---

(1) سورة يوسف، الآية: 52.

(2) قال أحمد: لن للنفي المؤكد، وأما قول الزمخشري في المنافاة له، فله وراء ذلك غرض، إنما يطلع عليه من قل كلامه علماً، وذلك أنه اعتمد في إحالة الرؤية على الله تعالى، على أن قوله تعالى: ﴿لن تراني﴾ معناه: أن الرؤية منافية لحالي، وجعل هذا المنافاة من مقتضى لن، ثم التزم ذلك في هذه اللفظة حيثما وقعت، كل ذلك لتمرّن الأذهان على أن هذا مقتضى لن، وقد سبق وجه الردّ عليه في ذلك.

(3) قال أحمد: وإنما اختصّ هذا النوع من الاستثناء بالنفي؛ لأن المستثنى منه، مسكوت عنه، والنفي عام، إذ يلزم من نفي الإتيان. مثلاً: نفى جميع العوارض اللاحقة به ضرورة، فكأنه لعمومه = = مقرون بذكر المستثنى منه، ولا كذلك الإتيان، فإنه لا إشعار له بعموم الأحوال؛ لأنه لا يتوقف إلا على أحدها، والله أعلم، ولقد صدقت هذه القصة المثل السائر، وهو قولهم: البلاء موكل بالمنطق، فإن يعقوب عليه السلام قال أوّلاً في حق يوسف: ﴿وأخاف أن يأكله الذئب﴾ فابتلي من ناحية هذا القول، وقال ههنا ثانياً: إلا أن يحاط بكم، أي تغلبوا عليه، فابتلي أيضاً بذلك، وأحيط بهم، وغلبوا عليه.

(4) سورة المدثر، الآية: 31.

(5) رواه البخاري في كتاب: الأنبياء، باب: (10) (الحديث رقم: 3371) وأبو داود في كتاب: السنة باب: في القرآن (الحديث رقم: 3737).

يوسف: بقي أخوكم وحيدًا فأجلسه معه على مائدته وجعل يواكله وقال: أنتم عشرة فلينزل كل اثنين منكم بيتًا وهذا لا ثاني له فيكون معي، فبات يوسف يضمه إليه ويشم رائحته حتى أصبح، وسأله عن ولده فقال: لي عشرة بنين اشتققت أسماءهم من اسم أخ لي هلك، فقال له: أتحب أن أكون أخاك بدل أخيك الهالك؟ قال: من يجد أخًا مثلك؟ ولكن لم يلدك يعقوب ولا راحيل، فبكى يوسف وقام إليه وعانقه وقال له: ﴿إني أنا أخوك﴾ يوسف ﴿فلا تبتئس﴾ فلا تحزن ﴿بما كانوا يعملون﴾ بنا فيما مضى فإنّ الله قد أحسن إلينا وجمعنا على خير ولا تعلمهم بما أعلمتك. وعن ابن عباس: تعرف إليه. وعن وهب: إنما قال له أنا أخوك بدل أخيك المفقود فلا تبتئس بما كنت تلقى منهم من الحسد والأذى فقد أمنتهم، وروي أنه قال له: فأنا لا أفارقك، قال: قد علمت اغتمام والدي بي فإذا حبستك ازداد غمه ولا سبيل إلى ذلك إلا أن أنسبك إلى ما لا يجمل، قال: لا أبالي فافعل ما بدا لك، قال: فإني أدس صاعي في رحلك ثم أنادي عليك بأنك قد سرقته ليهيّأ لي ردك بعد تسريحك معهم، قال: افعل.

فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَـٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾.

﴿السقاية﴾ مشربة يسقى بها وهي: الصواع. قيل: كان يسقى بها الملك ثم جعلت صاعًا يكال به، وقيل: كانت الدواب تسقى بها ويكال بها، وقيل: كانت إناء مستطيلاً يشبه المكوك، وقيل: هي المكوك الفارسي الذي يلتقي طرفاه تشرب به الأعاجم، وقيل: كانت من فضة مموهة بالذهب، وقيل: كانت من ذهب، وقيل: كانت مرصعة بالجواهر ﴿ثم أذن مؤذن﴾ ثم نادى مناد، يقال آذنه أعلمه، وأذن أكثر الإعلام ومنه المؤذن لكثرة ذلك منه. وروي: أنهم ارتحلوا وأمهلهم يوسف حتى انطلقوا ثم أمر بهم فأدركوا وحبسوا ثم قيل لهم ذلك. والعير الإبل التي عليها الأحمال؛ لأنها تعير أي: تذهب وتجيء، وقيل: قافلة الحمير ثم كثر حتى قيل لكل قافلة عير كأنها جمع عير وأصلها فعل كسقف وسقف فعل به ما فعل ببيض وعيد والمراد: أصحاب العير، كقوله: يا خيل الله اركبي. وقرأ ابن مسعود: وجعل السقاية على حذف جواب لما كأنه قيل: فلما جهزهم بجهازهم وجعل السقاية في رحل أخيه أمهلهم حتى انطلقوا ثم أذن مؤذن. وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي: تفقدون من أفقدته إذا وجدته فقيدًا. وقرئ: صواع وصاع وصوع وصوع بفتح الصاد وضمها والعين معجمة وغير معجمة ﴿وأنا به زعيم﴾ يقوله المؤذن يريد وأنا بحمل البعير كفيل أؤديه إلى من جاء به وأراد وسق بعير من طعام جعلاً لمن حصله.

قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَـٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَـٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾.

﴿تالله﴾ قسم فيه معنى التعجب مما أضيف إليهم، وإنما قالوا: ﴿لقد علمتم﴾ فاستشهدوا بعلمهم لما ثبت عندهم من دلائل ديانتهم وأمانتهم في كرتي مجيئهم ومداخلتهم للملك؛ ولأنهم دخلوا أفواه رواحلهم مكعومة لئلا تتناول زرعًا أو طعامًا لأحد من أهل السوق؛ ولأنهم ردوا بضاعتهم التي وجدوها في رحالهم ﴿وما كنا سارقين﴾ وما كنا قط نوصف بالسرقة وهي منافية لحالنا ﴿فما جزاؤه﴾ الضمير للصواع أي: فما جزاء سرقته ﴿إن كنتم كاذبين﴾ في حجودكم وادعائكم البراءة منه ﴿قالوا جزاؤه من وجد في رحله﴾ أي: جزاء سرقته أخذ من وجد في رحله، وكان حكم السارق في آل يعقوب أن يسترق سنة، فلذلك استفتوا في جزائه، وقولهم ﴿فهو جزاؤه﴾ تقرير للحكم أي: فأخذ السارق نفسه وهو جزاؤه لا غير كقولك: حق زيد أن يكسي ويطعم وينعم عليه فذلك حقه أي: فهو حقه لتقرر ما نكرته من استحقاقه وتلزمه، ويجوز أن يكون جزاؤه مبتدأ والجملة الشرطية كما هي خبره على إقامة الظاهر فيها مقام المضمر، والأصل جزاؤه من وجد في رحله فهو هو، فوضع الجزاء موضع هو كما تقول لصاحبك: من أخو زيد؟ فيقول لك: أخوه من يقعد إلى جنبه فهو هو يرجع الضمير الأوّل إلى من والثاني إلى الأخ، ثم تقول: فهو أخوه مقيمًا للمظهر مقام المضمر، ويحتمل أن يكون جزاؤه خبر مبتدأ محذوف أي: المسؤول عنه جزاؤه ثم أفتوا بقولهم: ﴿من وجد في رحله فهو جزاؤه﴾ كما يقول: من يستفتي في جزاء صيد المحرم جزاء صيد المحرم، ثم يقول: ﴿ومن قتله منكم متعمدًا فجزاء مثل ما قتل من النعم﴾[1].

فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَـٰتٍ مَّن نَّشَآءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾.

﴿فبدأ بأوعيتهم﴾ قيل: قال لهم: من وكل بهم: لابدّ من تفتيش أوعيتكم، فانصرف بهم إلى يوسف، فبدأ بتفتيش أوعيتهم قبل وعاء بنيامين لنفي التهمة حتى بلغ وعاءه فقال: ما أظنّ هذا أخذ شيئًا، فقالوا: والله لا نتركه حتى ننظر في رحله فإنه أطيب لنفسك وأنفسنا، فاستخرجوه منه. وقرأ الحسن: وعاء أخيه بضم الواو وهي لغة، وقرأ سعيد بن جبير: إعا أخيه بقلب الواو همزة.

(1) سورة المائدة، الآية: 95.

فإن قُلْتَ: لم ذكر ضمير الصواع مرّات ثم أنثه؟ **قُلْتُ**: قالوا رجع بالتانيث على السقاية أو أنث الصواع لأنه يذكر ويؤنث، ولعلّ يوسف كان يسميه سقاية وعبيده صواعًا، فقد وقع فيما يتصل به من الكلام سقاية وفيما يتصل به منه صواعًا **﴿كذلك كدنا﴾** مثل ذلك الكيد العظيم كدنا **﴿ليوسف﴾** يعني: علمناه إياه وأوحينا به إليه **﴿ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك﴾** تفسير للكيد وبيان له؛ لأنه كان في دين ملك مصر وما كان يحكم به في السارق: أن يغرم مثلي ما أخذ لا أن يلزم ويستعبد **﴿إلا أن يشاء الله﴾** أي: ما كان يأخذه إلا بمشيئة الله وإنه فيه **﴿نرفع درجات من نشاء﴾** في العلم كما رفعنا درجة يوسف فيه، وقرئ: يرفع بالياء ودرجات بالتنوين **﴿وفوق كل ذي علم عليم﴾** فوقه أرفع درجة منه في علمه، أو وفوق العلماء كلهم عليم هم دونه في العلم وهو الله عز وعلا.

فإن قُلْتَ: ما أنن الله فيه يجب أن يكون حسنًا، فمن أي وجه حسن هذا الكيد، وما هو إلا بهتان وتسريق لمن لم يسرق وتكذيب لمن لم يكذب وهو قوله: **﴿إنكم لسارقون﴾** **﴿فما جزاؤه إن كنتم كاذبين﴾**؟ **قُلْتُ**: هو في صورة البهتان وليس ببهتان في الحقيقة؛ لأنّ قوله: **﴿إنكم لسارقون﴾** تورية عما جرى مجرى السرقة من فعلهم بيوسف، وقيل: كان ذلك القول من المؤذن لا من يوسف، وقوله: **﴿إن كنتم كاذبين﴾** فرض لانتفاء براءتهم وفرض التكذيب لا يكون تكذيبًا، على أنه لو صرّح لهم بالتكذيب كما صرّح لهم بالتسريق لكان له وجه؛ لأنهم كانوا كاذبين في قولهم: **﴿وتركنا يوسف عند متاعنا فاكله الذئب﴾**[1] هذا، وحكم هذا الكيد حكم الحيل الشرعية التي يتوصل بها إلى مصالح ومنافع دينية كقوله تعالى لأيوب عليه السلام: **﴿وخذ بيدك ضغثًا﴾**[2] يتخلص من جلدها ولا يحنث وكقول إبراهيم عليه السلام: هي أختي لتسلم من يد الكافر، وما الشرائع كلها إلا مصالح وطرق إلى التخلص من الوقوع في المفاسد، وقد علم الله تعالى في هذه الحيلة التي لقنها يوسف مصالح عظيمة فجعلها سلمًا وذريعة إليها فكانت حسنة جميلة وانزاحت عنها وجوه القبح لما ذكرنا.

﴿ قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ٧٧ ﴾.

﴿أخ له﴾ أرادوا يوسف، روي أنهم لما استخرجوا الصاع من رحل بنيامين نكس إخوته رؤسهم حياء وأقبلوا عليه وقالوا: ما الذي صنعت فضحتنا وسوّدت وجوهنا، يا بني راحيل ما يزال لنا منكم بلاء، متى أخذت هذا الصاع؟ فقال: بنو راحيل الذين لا يزال منكم عليهم البلاء ذهبتم باخي فاهلكتموه، ووضع هذا الصواع في رحلي الذي وضع البضاعة في رحالكم. واختلف فيما أضافوا إلى يوسف من السرقة فقيل: كان أخذ في صباه صنمًا لجدّه أبي أمّه فكسره وألقاه بين الجيف في الطريق، وقيل: دخل كنيسة فاخذ تمثالاً صغيرًا من ذهب كانوا يعبدونه فدفنه، وقيل: كانت في المنزل عناق أو دجاجة فاعطاها السائل، وقيل: كانت لإبراهيم عليه السلام منطقة يتوارثها أكابر ولده فورثها إسحق، ثم وقعت إلى ابنته وكانت أكبر أولاده، فحضنت يوسف وهي عمته بعد وفاة أمّه وكانت لا تصبر عنه، فلما شبّ أراد يعقوب أن ينتزعه منها، فعمدت إلى المنطقة فحزمتها على يوسف تحت ثيابه وقالت: فقدت منطقة إسحق، فانظروا من أخذها، فوجدوها محزومة على يوسف، فقالت: إنه لي سلم أفعلم به ما شئت، فخلاه يعقوب عندها حتى ماتت **﴿فأسرّها﴾** إضمار على شريطة التفسير تفسيره **﴿أنتم شرّ مكانًا﴾** وإنما أنت؛ لأنّ قوله: أنتم شر مكانًا جملة أو كلمة على تسميتهم الطائفة من الكلام كلمة كانه قيل: فأسرّ الجملة أو الكلمة التي هي قوله: أنتم شر مكانًا، والمعنى: قال في نفسه: أنتم شر مكانًا، لأنّ قوله: قال أنتم شر مكانًا بدل من أسرّها، وفي قراءة ابن مسعود: فاسرّه على التذكير يريد القول أو الكلام، ومعنى: أنتم شر مكانًا أنتم شر منزلة في السرق؛ لأنكم سارقون بالصحة لسرقتكم أخاكم من أبيكم **﴿والله أعلم بما تصفون﴾** يعلم أنه لم يصح لي ولا لأخي سرقة وليس الأمر كما تصفون.

قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٧٨ .

فاستعطفوه بإذكارهم إياه حق أبيهم يعقوب وإنه شيخ كبير السنّ أو كبير القدر وأنّ بنيامين أحب إليه منهم، وكانوا قد أخبروه بأن ولدًا له قد هلك وهو عليه ثكلان وأنه مستانس بأخيه **﴿فخذ أحدنا مكانه﴾** فخذه بذله على وجه الاسترهان أو الاستعباد **﴿إنا نراك من المحسنين﴾** إلينا فأتمم إحسانك، أو من عادتك الإحسان فاجر على عادتك ولا تغيرها.

قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّظَٰلِمُونَ ٧٩ .

﴿معاذ الله﴾ هو كلام موجه ظاهره أنه وجب على قضية فتواكم أخذ من وجد الصواع في رحله واستعباده، فلو أخذ غيره كان ذلك ظلمًا في مذهبكم، فلم تطلبون ما عرفتم أنه ظلم، وباطنه إنّ الله أمرني وأوحى إليّ باخذ بنيامين واحتباسه لمصلحة أو لمصالح جمة علمها في ذلك، فلو أخذت غير من أمرني بأخذه كنت ظالمًا وعاملاً على خلاف الوحي، ومعنى: معاذ الله **﴿أن نأخذ﴾** نعوذ بالله معاذًا من أن نأخذ، فأضيف المصدر إلى المفعول به

(1) سورة يوسف، الآية: 17.

(2) سورة صٓ، الآية: 44.

وحذف من، و﴿إذًا﴾ جواب لهم وجزاء؛ لأن المعنى: إن أخذنا بدله ظلمنا.

فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُّمُونِى فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَـٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾.

﴿استيأسوا﴾ يئسوا وزيادة السين والتاء في المبالغة نحو ما مرّ في استعصم. والنجي على معنيين: يكون بمعنى: المناجي كالعشير والسمير بمعنى المعاشر والمسامر ومنه قوله تعالى: ﴿وقربناه نجيًا﴾[1] وبمعنى المصدر الذي هو: التناجي كما قيل النجوى بمعناه، ومنه قيل: قوم نجي، كما قيل: ﴿وإذ هم نجوى﴾[2] تنزيلاً المصدر منزلة الأوصاف، ويجوز أن يقال: هم نجي، كما قيل: هم صدّيق؛ لأنه بزنة المصادر وجمع أنجية، قال:

إني إذا ما القوم كانوا أنجية

ومعنى ﴿خلصوا﴾ اعتزلوا وانفردوا عن الناس خالصين لا يخالطهم سواهم ﴿نجيًا﴾ ذي نجوى، أو فوجًا نجيًا أي: مناجيًا لمناجاة بعضهم بعضًا، وأحسن منه أنهم تمحضوا تناجيًا لاستجماعهم لذلك وإفاضتهم فيه يجدّ واهتمام كأنهم في أنفسهم صورة التناجي وحقيقته، وكان تناجيهم في تدبير أمرهم على أيّ صفة يذهبون وماذا يقولون لأبيهم في شأن أخيهم؟ كقوم تعايوا بما دهمهم من الخطب فاحتاجوا إلى التشاور ﴿كبيرهم﴾ في السنّ وهو: روبيل، وقيل: رئيسهم وهو: شمعون، وقيل: كبيرهم في العقل والرأي وهو: يهوذا ﴿ما فرّطتم في يوسف﴾ فيه وجوه: أن تكون ما صلة أي: ومن قبل هذا قصر تم في شأن يوسف ولم تحفظوا عهد أبيكم، وأن تكون مصدرية: على أن محل المصدر الرفع على الابتداء وخبره الظرف وهو من قبل، ومعناه: ووقع. من قبل تفريطكم في يوسف، أو النصب عطفًا على مفعول: ألم تعلموا وهو أن أباكم كأنه قيل: ألم تعلموا أخذ أبيكم عليكم موثقًا وتفريطكم من قبل في يوسف، وأن تكون موصولة: بمعنى ومن قبل هذا ما فرّطتموه أي: قدّمتموه في حق يوسف من الجناية العظيمة ومحله الرفع أو النصب على الوجهين ﴿فلن أبرح الأرض﴾ فلن أفارق أرض مصر ﴿حتى يأذن لي أبي﴾ في الانصراف إليه ﴿أو يحكم الله لي﴾ بالخروج منها، أو بالانتصاف ممن أخذ أخي، أو بخلاصه من يده بسبب من الأسباب ﴿وهو خير الحاكمين﴾ لأنه لا يحكم أبدًا إلا بالعدل والحق.

ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ ۖ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا ۖ وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَـٰفِظِينَ ﴿٨١﴾.

وقرئ: سرق أي نسب إلى السرقة ﴿وما شهدنا﴾[3] عليه بالسرقة ﴿إلا بما علمنا﴾ من سرقته وتيقناه؛ لأن الصواع استخرج من وعائه ولا شيء أبين من هذا ﴿وما كنا للغيب حافظين﴾[4] وما علمنا أنه سيسرق حين أعطيناك الموثق، أو ما علمنا أنك تصاب به كما أصبت بيوسف، ومن قرأ سرق فمعناه: وما شهدنا إلا بقدر ما علمنا من التشريق، وما كنا للغيب: للأمر الخفي، حافظين: أسرق بالصحة أم دسّ الصاع في رحله ولم يشعر.

وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾.

﴿القرية التي كنا فيها﴾ هي مصر أي: أرسل إلى أهلها فسلهم عن كنه القصة ﴿والعير التي أقبلنا فيها﴾ وأصحاب العير وكانوا قومًا من كنعان من جيران يعقوب، وقيل: من أهل صنعاء. معناه فرجعوا إلى أبيهم فقالوا له ما قال لهم أخوهم فـ﴿قال بل سوّلت لكم أنفسكم أمرًا﴾[5] أرتموه، وإلا فما أدرى ذلك الرجل أنّ السارق

---

(1) سورة مريم، الآية: 52.

(2) سورة الإسراء، الآية: 47.

(3) قال أحمد: إمّا أن يكون مقتضى شرعهم حينئذ، أنّ مجرّد وجود الشيء بيد المدّعى عليه بعد إنكاره، يوجب له أحكام السارق، فيكون العلم على ظاهره إذا، وإمّا أن لا يكون كذلك، فهذا القدر من مجرّد وجوده في رحله، لا يوجب علم كونه سارقاً، وغايته أن يفيد ظناً بيناً، فيكون المراد بالعلم ههنا: الظنّ، وقد ورد مثله، ويكون قولهم: ﴿وما كنا للغيب حافظين﴾ تنبيهاً على أن مستندهم فيما قالوه ظنّ بمقتضى ظاهر الحال، وإمّا كشف باطن الامر الموجب للعلم، فليسوا يدعونه عليه.

(4) قال أحمد: وإنما تلتئم القراءتان على التاويل الذي نكرته، وهو: أنهم إنما أضافوا إليه السرقة، ظناً بمقتضى ظاهر الحال، واحترزوا أن يعتقد أنهم علموا ذلك حقيقة، فقالوا: ﴿وما كنا للغيب حافظين﴾ فالقراءتان على التاويل المذكور، يقتضيان تبرئتهم من دعوى العلم الجازم عليه، وإمّا على غيره من التاويلات المذكورة، فلا تنتظم القراءتان؛ لأنّ مقتضى الاولى الجزم عليه بالسرقة = علماً، ومقتضى الثانية التبري من الجزم، والله أعلم.

(5) قال أحمد: وهذا الزمخشري إسلاف جواب عن سؤال، كان قائلاً يقول: هم في الوقعة الاولى، سوّلت لهم أنفسهم أمراً بلا مراء، وأما في هذه الوقعة الثانية، فلم يتعمدوا في حق بنيامين سواء، ولا أخبروا أباهم إلاّ بالواقع على جليته، وما تركوه بمصر، إلا مغلوبين عن استصحابه، فما وجه قوله ثانياً: ﴿بل سوّلت لكم أنفسكم أمراً﴾ كما قال لهم أوّلاً، وإذا ورد السؤال على هذا التقرير، فلا بدّ من زيد بسط في الجواب، فنقول: كانوا عند يعقوب عليه السلام حينئذ متهمين، وهم قمن باتهامه لم أسلفوه في حق يوسف عليه السلام، وقامت عنده قرينة تؤكد التهمة وتقويها، وهي أخذ الملك له في السرقة، ولم يكن ذلك إلا من دين يعقوب وحده، لا من دين غيره من الناس، ولا من عادتهم، وإلى ذلك وقعت الإشارة بقوله تعالى: ﴿ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك﴾ تنبيهاً من الله تعالى على وجه اتهام يعقوب لهم، فعلم أنّ الملك إنما فعل ذلك بفتواهم له به، وظن أنهم أفتوه بذلك بعد ظهور السرقة تعمداً، ليتخلف أخوهم، وكان الواقع أنهم استفتوا من قبل =

يؤخذ بسرقته لولا فتواكم وتعليمكم ﴿بهم جميعًا﴾ بيوسف وأخيه وروبيل أو غيره ﴿إنه هو العليم﴾ بحالي في الحزن والأسف ﴿الحكيم﴾ الذي لم يبتلني بذلك إلا لحكمة ومصلحة.

وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾.

﴿وتولى عنهم﴾ وأعرض عنهم كراهة لما جاؤا به ﴿يا أسفىٰ﴾ أضاف الأسف وهو أشد الحزن والحسرة إلى نفسه، والألف بدل من ياء الإضافة والتجانس بين لفظتي الأسف ويوسف مما يقع مطبوعًا غير متعمل فيملح ويبدع ونحوه: ﴿أثاقلتم إلى الأرض أرضيتم﴾[1] ﴿وهم ينهون عنه وينأون عنه﴾[2] ﴿يحسبون أنهم يحسنون﴾[3] ﴿من سبإ بنبإ﴾[4] وعن النبي ﷺ: «لم تعط أمّة من الأمم ﴿إنا لله وإنا إليه راجعون﴾[5] عند المصيبة إلا أمة محمد ﷺ، ألا ترى إلى يعقوب حين أصابه ما أصابه لم يسترجع وإنما قال ﴿يا أسفىٰ﴾»[6].

فإن قُلْتَ: كيف تأسف على يوسف دون أخيه ودون الثالث. والرزء الأحدث أشد على النفس وأظهر أثرًا؟ قُلْتُ: هو دليل على تمادي أسفه على يوسف وأنه لم يقع فائت عنده موقعه. وأن الرزء فيه مع تقادم عهده كان غضًا عنده طريًا ولم تنسني أو في المصيبات بعده، ولأنّ الرزء في يوسف كان قاعدة مصيباته التي ترتبت عليها الرزايا في ولده فكان الأسف عليه أسفًا على من لحق به ﴿وابيضت عيناه﴾ إذا كثر الاستعبار محقت العبرة سواد العين وقلبته إلى بياض كدر، قيل: قد عمي بصره، وقيل: كان يدرك إدراكًا ضعيفًا. قرئ: من الحزن ومن الحزن، الحزن كان سبب البكاء الذي حدث منه البياض فكأنه حدث من الحزن، قيل: ما جفت عينا يعقوب من وقت فراق يوسف إلى حين لقائه ثمانين عامًا، وما على وجه الأرض أكرم على الله من يعقوب، وعن رسول الله ﷺ أنه سأل جبريل عليه السلام: «ما بلغ من وجد يعقوب على يوسف؟ قال: وجد سبعين ثكلى. قال: فما كان له من الأجر؟ قال: أجر مائة شهيد، وما ساء ظنه بالله ساعة قط»[7].

فإن قُلْتَ: كيف جاز لنبي الله أن يبلغ به الجزع ذلك المبلغ. قُلْتُ: الإنسان مجبول على أنّ لا يملك نفسه عند الشدائد من الحزن ولذلك حمد صبره، وأن يضبط نفسه حتى لا يخرج إلى ما لا يحسن، ولقد بكى رسول الله ﷺ على ولده إبراهيم وقال: «القلب يجزع والعين تدمع ولا نقول ما يسخط الرب وإنا عليك يا إبراهيم لمحزونون»[8]. وإنما الجزع المذموم ما يقع من الجهلة من الصياح والنياحة ولطم الصدور والوجوه وتمزيق الثياب، وعن النبي ﷺ: أنه بكى على ولد بعض بناته وهو يجود بنفسه فقيل: يا رسول الله تبكي وقد نهيتنا عن البكاء؟ فقال: «ما نهيتكم عن البكاء وإنما نهتكم عن صوتين أحمقين: صوت عند الفرح، وصوت عند الترح»[9]. وعن الحسن أنه بكى على ولد أو غيره، فقيل له في ذلك: فقال: «ما رأيت الله جعل الحزن عارًا على يعقوب» ﴿فهو كظيم﴾ فهو مملوء من الغيظ على أولاده ولا يظهر ما يسوءهم، فعيل بمعنى مفعول بدليل قوله: وهو مكظوم: من كظم السقاء إذا شدّة على ملئه والكظم بفتح الظاء مخرج النفس يقال: أخذ بأكظامه.

قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾.

﴿تفتؤ﴾ أراد لا تفتؤ فحذف حرف النفي؛ لأنه لا يلتبس بالإثبات؛ لأنه لو كان إثباتًا لم يكن بدمن اللام والنون، ونحوه:

فقلت يمين الله أبرح قاعدًا

ومعنى لا تفتؤ: لا تزال، وعن مجاهد: لا تفتر من حبه كأنه جعل الفتوء والفتور أخوين، يقال ما فتئ يفعل، قال أوس:

فما فتئت خيل تثوب وتدعي ويلحق منها لاحق وتقطع

﴿حرضًا﴾ مشفيًا على الهلاك مرضًا، وأحرضته

= أن يدعى عليهم السرقة، فذكروا ما عندهم، ولم يشعروا أنّ المقصود إلزامهم بما قالوا، واتهام من هو، بحيث تتطرق التهمة إله، لا حرج فيه، وخصوصاً فيما يرجع إلى الوالد من الولد، ويحتمل، والله أعلم، أن يكون الوجه الذي سوغ له هذا القول في حقهم، أنهم جعلوا مجرّد وجود الصواع في رحل من يوجد في رحله سرقة، من غير أن يحيلوا الحكم على ثبوت كونه سارقاً بوجه معلوم، وهذا في شرعنا لا يثبت السرقة على من ادعيت عليه، فإن كان شرعهم مثل شرعنا في ذلك، ففتواهم إذاً غير محررة، وهو إشعار بأنهم كانوا حراصاً على ثبوت السرقة عليه، ويؤكد ذلك قولهم: ﴿إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل﴾ يؤكدون بذلك ثبوت السرقة عليه، والله أعلم، وقوله: ﴿بل سوّلت لكم أنفسكم أمراً﴾ واقع بمكانه من حالهم، وإن كان شرعهم يقتضي ذلك مخالفاً لشرعنا، فالعمدة على الجواب الأوّل، والله المستعان.

(1) سورة التوبة، الآية: 38.

(2) سورة الأنعام، الآية: 26.

(3) سورة الكهف، الآية: 104.

(4) سورة النمل، الآية: 22.

(5) سورة البقرة، الآية: 156.

(6) رواه البيهقي في شعب الإيمان، باب: في الصبر على المصائب (الحديث رقم: 9691).

(7) لم يروه الطبري إلا من قول الحسن 2/174.

(8) رواه البخاري في كتاب: الجنائز، باب: قول النبي ﷺ «إنا بك لمحزونون» (الحديث رقم: 1303) ومسلم في صحيحه كتاب: الفضائل، باب: رحمته ﷺ بالصبيان (الحديث رقم: 5979).

(9) رواه البخاري في كتاب: الجنائز، باب: قول النبي ﷺ: يعذب الميت ببعض بكاء أهله عليه (الحديث رقم: 1284)، ومسلم في كتاب: الجنائز، باب: البكاء على الميت (الحديث رقم: 2132).

المرض ويستوي فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث لأنه مصدر، والصفة حرض بكسر الراء ونحوهما: دنف ودنف، جاءت القراءة بهما جميعًا، وقرأ الحسن: حرضًا بضمتين ونحوه في الصفات رجل جنب وغرب.

قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾.

البث أصعب الهم الذي لا يصبر عليه صاحبه فيثبه إلى الناس أي: ينشره، ومنه: باثه أمره وأبثه إياه ومعنى: ﴿**إنما أشكو**﴾ إني لا أشكو إلى أحد منكم ومن غيركم إنما أشكو إلى ربي داعيًا وملتجئًا إليه فخلوني وشكايتي، وهذا معنى توليه عنهم أي: فتولى عنهم إلى الله والشكاية إليه، وقيل: دخل على يعقوب جار له فقال: يعقوب قد تهشمت وفنيت من السنّ ما بلغ أبوك فقال: هشمني وأفناني ما ابتلاني الله به من همّ يوسف، فأوحى الله إليه: يا يعقوب أتشكوني إلى خلقي؟ قال يا رب خطيئة أخطأتها فاغفر لي، فغفر له. فكان بعد ذلك إذا سئل قال: ﴿**إنما أشكو بثي وحزني إلى الله**﴾ وروي: أنه أوحى إلى يعقوب إنما وجدت عليكم لأنكم ذبحتم شاة فقام ببابكم مسكين فلم تطعموه وإنّ أحب خلقي إليّ الأنبياء ثم المساكين، فاصنع طعامًا وادع عليه المساكين. وقيل: اشترى جارية مع ولدها فباع ولدها فبكت حتى عميت ﴿**واعلم من الله ما لا تعلمون**﴾ أي: أعلم من صنعه ورحمته وحسن ظني به أنه يأتيني بالفرج من حيث لا احتسب، وروي: أنه رأى ملك الموت في منامه فسأله هل قبضت روح يوسف؟ فقال: لا والله هو حيّ فاطلبه. وقرأ الحسن: وحزني بفتحتين، وحزني بضمتين قتادة.

يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾.

﴿**فتحسسوا من يوسف وأخيه**﴾ فتعرّفوا منهما وتطلبوا خبرهما، وقرئ: بالجيم كما قرئ بهما في الحجرات، وهما تفعل من الإحساس وهو: المعرفة ﴿فلما أحس عيسى منهم الكفر﴾[1]، ومن الجس وهو: الطلب، ومنه قالوا لمشاعر الإنسان الحواس والجواس ﴿**من روح الله**﴾ من فرجه وتنفيسه، وقرأ الحسن وقتادة: من روح الله: بالضم أي: من رحمته التي يحيا بها العباد.

فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِي ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾.

﴿**الضر**﴾ الهزال من الشدّة والجوع ﴿**مزجاة**﴾ مدفوعة يدفعها كل تاجر رغبة عنها واحتقارًا لها من أزجيته إذا دفعته وطردته، والريح تزجي السحاب. قيل: كانت من متاع الأعراب صوفًا وسمنًا، وقيل: الصنوبر وحبة الخضراء، وقيل: سويق المقل والأقط، وقيل: دراهم زيوفًا لا تؤخذ إلا بوضيعة ﴿**فاوف لنا الكيل**﴾ الذي هو حقنا ﴿**وتصدّق علينا**﴾ وتفضل علينا بالمسامحة والإغماض عن رداءة البضاعة، أوزدنا على حقنا، فسموا ما هو فضل وزيادة لاتلزمه صدقة؛ لأنّ الصدقات محظورة على الأنبياء، وقيل: كانت تحل لغير نبينا، وسئل ابن عيينة عن ذلك فقال: ألم تسمع ﴿**وتصدق علينا**﴾ أراد أنها كانت حلالاً لهم، والظاهر أنهم تمسكنوا له وطلبوا أن يتصدق عليهم ومن ثم رق لهم وملكته الرحمة عليهم فلم يتمالك أن عرّفهم نفسه وقوله: ﴿**إن الله يجزي المتصدّقين**﴾ شاهد لذلك لذكر الله وجزائه، والصدقة: العطية التي تبتغي بها المثوبة من الله، ومنه قول الحسن لمن سمعه يقول: اللهم تصدق عليّ: إنّ الله تعالى لا يتصدق، إنما يتصدق الذي يبتغي الثواب، قل: اللهم أعطني أو تفضل عليّ أو ارحمني.

قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾.

﴿**قال هل علمتم**﴾[2] أتاهم من جهة الدين، وكان حليمًا موفقًا فكلمهم مستفهمًا عن معرفة وجه القبح الذي يجب أن يراعيه التائب، فقال: هل علمتم قبح ﴿**ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون**﴾ لا تعلمون قبحه فلذلك أقدمتم عليه يعني: هل علمتم قبحه فتبتم إلى الله منه، لأنّ علم القبح يدعو إلى الاستقباح، والاستقباح يجر إلى التوبة، فكان كلامه شفقة عليهم وتنصيحًا لهم في الدين لا معاتبة وتثريبًا، إيثارًا لحق الله على نفسه في ذلك المقام الذي يتنفس فيه المكروب وينفث المصدور ويتشفى المغيظ المحنق ويدرك ثأره الموتور، فللّه أخلاق الأنبياء ما أوطأها وأسجحها، ولله حصا عقولهم ما أرزنها وأرجحها. وقيل: لم يرد نفي العلم عنهم، لأنهم كانوا علماء، ولكنهم لما لم يفعلوا ما يقتضيه العلم ولا يقدم عليه إلا جاهل سماهم

---

(1) سورة آل عمران، الآية: 52.

(2) قال أحمد: ومن تلطفه بهم قوله: ﴿إذ أنتم جاهلون﴾ كالاعتذار عنهم؛ لأنّ فعل القبيح على جهل بمقدار قبحه، أسهل من فعله على علم، وهم لو ضربوا في طرق الاعتذار، لم يلفوا عذراً كهذا، ألا ترى أن موسى عليه السلام لما اعتذر نفسه، لم يزد على أن قال: فعلتها إذاً، وأنا من الضالين، وروى أنهم لما قالوا مسنا وأهلنا الضرّ، وتضرعوا إليه، ارفضت عيناه، ثم قال هذا القول، وقيل: ألوا إليه كتاباً من يعقوب إسرائيل الله بن إسحاق ذبيح الله بن إبراهيم خليل الله، إلى عزيز مصر: أمّا بعد، فإنا أهل بيت موكل بنا البلاء، أمّا جدي، فشدت يداه ورجلاه، ورمى إلى النار ليحرق، = فجعلها الله عليه برداً وسلاماً، وأمّا أبي، فوضعت المدية في قفاه ليذبح، ففداه الله، وأما أنا، فكان لي ابن، وكان أحب أولادي إليّ، فذهب به إخوته إلى البرية، ثم أتوني بقميصه ملطخاً بالدم، وقالوا: قد أكله الذئب، فذهبت عيناي من بكائي عليه، ثم كان لي ابن، وكان أخاه من أمّه، وكنت أتسلى به، فذهبوا به، ثم رجعوا، فقالوا إنه سرق، وأنك حبسته لذلك، وإنا أهل بيت، لا نسرق، ولا نلد سارقاً، فإن رددته عليّ، وإلا دعوت عليك دعوة، تبلغ السابع من ولدك، والسلام. فلما قرأ الكتاب، بكى، وكتب الجواب: اصبر كما صبروا، تظفر كما ظفروا.

جاهلين، وقيل: معناه إذ أنتم صبيان في حد السفه والطيش قبل أن تبلغوا أو أن الحلم والرزانة روي: أنهم لما قالوا: ﴿مسنا وأهلنا الضر﴾[1] وتضرعوا إليه ارفضت عيناه ثم قال: هذا القول، وقيل: أدوا إليه كتاب يعقوب: من يعقوب إسرائيل الله بن إسحق ذبيح الله بن إبراهيم خليل الله إلى عزيز مصر، أما بعد فإنا أهل بيت موكل بنا البلاء، أما جدي فشدت يداه ورجلاه ورمي به في النار ليحرق فنجاه الله وجعلت النار عليه بردًا وسلامًا، وأما أبي فوضع السكين على قفاه ليقتل ففداه الله، وأما أنا فكان لي ابن وكان أحب أولادي إلي فذهب به إخوته إلى البرية ثم أتوني بقميصه ملطخًا بالدم وقالوا: قد أكله الذئب، فذهبت عيناي من بكائي عليه، ثم كان لي ابن وكان أخاه من أمه وكنت اتسلى به، فذهبوا به ثم رجعوا وقالوا: إنه سرق وأنك حبسته لذلك، وإنا أهل بيت لا نسرق ولا نلد سارقًا، فإن رددته عليّ وإلا دعوت عليك دعوة تدرك السابع من ولدك، والسلام، فلما قرأ يوسف الكتاب لم يتمالك وعيل صبره فقال لهم ذلك. وروي: أنه لما قرأ الكتاب بكى، وكتب الجواب: اصبر كما صبروا تظفر كما ظفروا.

فإن قُلْتَ: ما فعلهم بأخيه؟ **قُلْتُ:** تعريضهم إياه للغم والثكل بإفراده عن أخيه لأبيه وأمه، وجفاؤهم به حتى كان لا يستطيع أن يكلم أحدًا منهم إلا كلام الذليل العزيز، وإيذاؤهم له بأنواع الأذى.

قَالُوٓاْ أَإِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِي قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٩٠﴾.

قرئ: ائنك على الاستفهام، وأنك على الإيجاب، وفي قراءة أبيّ: ائنك أو أنت يوسف على معنى: ائنك يوسف، أو أنت يوسف، فحذف الأوّل لدلالة الثاني عليه، وهذا كلام متعجب مستغرب لما يسمع فهو يكرر الاستثبات.

فإن قُلْتَ: كيف عرفوه؟ **قُلْتُ:** رأوا في روائه وشمائله حين كلمهم بذلك ما شعروا به أنه هو، مع علمهم بأن ما خاطبهم به لا يصدر مثله إلا عن حنيف مسلم من سنخ إبراهيم لا عن بعض أعزاء مصر، وقيل: تبسم عند ذلك فعرفوه بثناياه وكانت كاللؤلؤ المنظوم، وقيل: ما عرفوه حتى رفع التاج عن رأسه، فنظروا إلى علامة بقرنه كانت ليعقوب وسارة مثلها تشبه الشامة البيضاء.

فإن قُلْتَ: قد سألوه عن نفسه فلم أجابهم عنها وعن أخيه على أن أخاه كان معلومًا لهم؟ **قُلْتُ:** لأنه كان في ذكر أخيه بيان لما سألوه عنه ﴿من يتق﴾ من يخف الله وعقابه ﴿ويصبر﴾ على المعاصي وعلى الطاعات ﴿فإن الله لا يضيع﴾ أجرهم، فوضع المحسنين موضع الضمير لاشتماله على المتقين والصابرين.

قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾.

﴿لقد آثرك الله علينا﴾ أي: فضلك علينا بالتقوى والصبر وسيرة المحسنين. وإنّ شأننا وحالنا أنا كنا خاطئين متعمدين للإثم لم نتق ولم نصبر، لا جرم أنّ الله أعزك بالملك وأذلنا بالتمسكن بين يديك.

قَالَ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾.

﴿لا تثريب عليكم﴾ لا تأنيب عليكم ولا عتب، وأصل التثريب من الثرب، وهو: الشحم الذي هو غاشية الكرش، ومعناه: إزالة الثرب كما أن التجليد والتقريع إزالة الجلد والقرع؛ لأنه إذا ذهب كان ذلك غاية الهزال والعجف الذي ليس بعده، فضرب مثلاً للتقريع الذي يمزق الأعراض ويذهب بماء الوجوه.

فإن قُلْتَ[2]: بم تعلق ﴿اليوم﴾ **قُلْتُ:** بالترتيب، أما بالمقدر في عليكم من معنى الاستقرار، أو بيغفر والمعنى: لا أثربكم اليوم، وهو: اليوم الذي هو مظنة التثريب، فما ظنكم بغيره من الأيام، ثم ابتدأ فقال: ﴿يغفر الله لكم﴾ فدعا لهم بمغفرة ما فرط منهم، يقال: غفر الله لك، ويغفر الله لك، على لفظ الماضي والمضارع جميعًا، ومنه قول المشمت: يهديكم الله ويصلح بالكم، واليوم يغفر الله لكم بشارة بعاجل غفران الله لما تجدّد يومئذ من توبتهم وندمهم على خطيئتهم. وروي أن رسول الله ﷺ أخذ بعضادتي باب الكعبة يوم الفتح لقريش: «ما ترونني فاعلاً بكم؟ قالوا: نظن خيرًا أخ كريم وابن أخ كريم وقد قدرت، فقال: أقول ما قال أخي يوسف: ﴿لا تثريب عليكم اليوم﴾»[3] وروي أنّ أبا سفيان لما جاء ليسلم قال له العباس: إذا أتيت الرسول فاتل عليه ﴿قال لا تثريب عليكم﴾ ففعل، فقال رسول الله ﷺ: «غفر الله لك ولمن علمك»[4]. ويروى: أن إخوته لما عرفوه وأرسلوا إليه إنك تدعونا إلى طعامك بكرة وعشية ونحن نستحي منك لما فرط منا فيك، فقال يوسف: إنّ أهل مصر وإن ملكت فيهم فإنهم ينظرون إليّ بالعين الأولى ويقولون: سبحان من بلغ عبدًا بيع بعشرين درهمًا ما بلغ، ولقد شرفت الآن بكم وعظمت في العيون حيث علم الناس أنكم إخوتي وأني من حفدة إبراهيم.

---

(1) سورة يوسف، الآية: 88.

(2) قال أحمد: وهذا المعنى: إنما يتوجه على الإعراب الأوّل، وهو الأوجه، ألا ترى إلى قولهم بعد ذلك: ﴿يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين﴾ وقوله: ﴿سوف أستغفر لكم ربي﴾ دل على أنهم كانوا بعد في عهدة الذنب، ولو كان متعلقاً بيغفر الزم، أن يقطعوا= = بغفران ذنبهم، حينئذ بأخبار النبي الصديق، ويحتمل أن يقال: إنما أراد: مغفرة ما يرجع إلى حقه دون حق أبيه، إذ الإثم كان مشتركاً بينهما، والله أعلم. (قوله: كانت أمّه تحي، وقيل: هما أبوه وأخته).

(3) رواه أبو عبيد في كتاب: الأموال ص 51 (الحديث رقم: 298).

(4) قال الزيلعي: غريب جدًا 2/179.

ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾.

﴿اذهبوا بقميصي هذا﴾ قيل: هو القميص المتوارث الذي كان في تعويذ يوسف وكان من الجنة أمره جبريل عليه السلام أن يرسله إليه فإنّ فيه ريح الجنة لا يقع على مبتلى ولا سقيم إلا عوفي **﴿يات بصيرًا﴾** يصر بصيرًا كقولك جاء البناء محكمًا بمعنى: صار، ويشهد له **﴿فارتد بصيرًا﴾**[1] أو بات إليّ وهو بصير وينصره قوله: **﴿وأتوني بأهلكم أجمعين﴾** أي يأتني أبي ويأتني آله جميعًا وقيل: يهوذا هو الحامل، قال: أنا أحزنته بحمل القميص ملطوخًا بالدم إليه فأفرحه كما أحزنته، وقيل: حمله وهو حاف حاسر من مصر إلى كنعان وبينهما مسيرة ثمانين فرسخًا.

وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ۖ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾.

﴿فصلت العير﴾ خرجت من عريش مصر، يقال: فصل من البلد فصولاً إذا انفصل منه وجاوز حيطانه، وقرأ ابن عباس: فلما انفصل العير **﴿قال﴾** لولد ولده ومن حوله من قومه **﴿إني لأجد ريح يوسف﴾** أوجده الله ريح القميص حين أقبل من مسيرة ثمان. والتفنيد النسبة إلى الفَند وهو: الخرف وإنكار العقل من هرم، يقال: شيخ مفند، ولا يقال: عجوز مفندة لأنها لم تكن في شبيبتها ذات رأي فتفند في كبرها، والمعنى: لولا تفنيدكم إياي لصدّقتموني.

قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾.

﴿لفي ضلالك القديم﴾ لفي ذهابك عن الصواب قدمًا في إفراط محبتك ليوسف ولهجك بذكره ورجائك للقائه، وكان عندهم أنه قد مات.

فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾.

﴿ألقاه﴾ طرح البشير القميص على وجه يعقوب أو ألقاه يعقوب **﴿فارتدّ بصيرًا﴾** فرجع بصيرًا، يقال: ردّه فارتدّ وارتدّه إذا ارتجعه **﴿ألم أقل لكم﴾** يعني: قوله: **﴿إني لأجد ريح يوسف﴾**[2] أو قوله: **﴿ولا تيأسوا من روح الله﴾**[3] وقوله: **﴿إني أعلم﴾** كلام مبتدأ لم يقع عليه القول ولك أن توقعه عليه وتريد قوله: **﴿إنما أشكو بثي وحزني إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون﴾**[4] وروي أنه سأل البشير كيف يوسف؟ فقال: هو ملك مصر، ما أصنع بالملك؟ على أي دين تركته؟ قال: على دين الإسلام، قال: الآن تمت النعمة.

قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾.

﴿سوف استغفر لكم﴾ قيل: أخر الاستغفار إلى وقت السحر، وقيل: إلى ليلة الجمعة ليتعمد به وقت الإجابة، وقيل: ليتعرّف حالهم في صدق التوبة وإخلاصها، وقيل: أراد الدوام على الاستغفار لهم، فقد روي أنه كان يستغفر لهم كل ليلة جمعة في نيف وعشرين سنة، وقيل: قام إلى الصلاة في وقت السحر فلما فرغ رفع يديه وقال: اللهمّ اغفر لي جزعي على يوسف وقلة صبري عنه، واغفر لولدي ما أتوا إلى أخيهم، فأوحي إليه: إنّ الله قد غفر لك ولهم أجمعين، وروي أنهم قالوا له وقد علتهم الكآبة: ما يغني عنا عفوكما إن لم يعف عنا ربنا؛ فإن لم يوح إليك بالعفو فلا قرّت لنا عين أبدًا، فاستقبل الشيخ القبلة قائمًا يدعو، وقام يوسف خلفه يؤمن، وقاموا خلفهما أذلة خاشعين عشرين سنة حتى بلغ جهدهم وظنوا أنها الهلكة نزل جبريل عليه السلام فقال: إنّ الله قد أجاب دعوتك في ولدك وعقد مواثيقهم بعدك على النبوّة، وقد اختلف في استنبائهم.

فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾.

﴿فلما دخلوا على يوسف﴾ قيل: وجه يوسف إلى أبيه جهازًا ومائتي راحلة ليتجهز إليه بمن معه، وخرج يوسف والملك في أربعة آلاف من الجند والعظماء وأهل مصر بأجمعهم فتلقوا يعقوب وهو يمشي يتوكأ على يهوذا، فنظر إلى الخيل والناس فقال: يا يهوذا أهذا فرعون مصر؟ قال: لا هذا ولدك، فلما لقيه قال يعقوب عليه السلام: السلام عليك يا مذهب الأحزان، وقيل: إنّ يوسف قال له لما التقيا: يا أبت بكيت عليّ حتى ذهب بصرك، ألم تعلم أنّ القيامة تجمعنا؟ فقال: بلى ولكن خشيت أن تسلب دينك فيحال بيني وبينك، وقيل: إنّ يعقوب وولده دخلوا مصروهم اثنان وسبعون ما بين رجل وامرأة، وخرجوا منها مع موسى ومقاتلتهم ستمائة ألف وخمسمائة وبضعة وسبعون رجلاً سوى الذرية والهرمى، وكانت الذرّية ألف ألف ومائتي ألف **﴿آوى إليه أبويه﴾** ضمهما إليه واعتنقهما. قال ابن أبي إسحٰق: كانت أمّه تحيي وقيل: هما أبوه وخالته ماتت أمّه فتزوّجها وجعلها أحد الأبوين، لأنّ الربابة تدعى أمًا لقيامها مقام الأمّ، أو لأنّ الخالة أمّ كما أنّ العم أب ومنه قوله:

(1) سورة يوسف، الآية: 96.
(2) سورة يوسف، الآية: 94.
(3) سورة يوسف، الآية: 87.
(4) سورة يوسف، الآية: 86.

﴿وإله آبائك إبراهيم وإسمٰعيل وإسحٰق﴾[1].

فإن قُلْتَ: ما معنى دخولهم عليه قبل دخولهم مصر؟ **قُلْتُ:** كأنه حين استقبلهم نزل لهم في مضرب أو بيت، ثم دخلوا عليه وضمّ إليه أبويه. ثم قال لهم: **﴿ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين﴾** ولما دخل مصر وجلس في مجلسه مستويًا على سريره واجتمعوا إليه، أكرم أبويه فرفعهما على السرير **﴿وخرّوا له﴾** يعني: الإخوة الأحد عشر والأبوين **﴿سجدًا﴾** ويجوز أن يكون قد خرج في قبة من قباب الملوك التي تحمل على البغال، فأمر أن يرفع إليه أبواه فدخلا عليه القبة فآواهما إليه بالضم والاعتناق وقرّبهما منه وقال بعد ذلك: ادخلوا مصر.

فإن قُلْتَ: ثم تعلقت المشيئة **قُلْتُ:** بالدخول مكيفًا بالأمن؛ لأنّ القصد إلى اتصافهم بالأمن في دخولهم، فكأنه قيل لهم: اسلموا وآمنوا في دخولكم إن شاء الله، ونظيره قولك للغازي: ارجع سالمًا غانمًا إن شاء الله، فلا تعلق المشيئة بالرجوع مطلقًا، ولكن مقيدًا بالسلامة والغنيمة مكيفًا بهما، والتقدير: ادخلوا مصر آمنين إن شاء الله دخلتم آمنين، ثم حذف الجزء لدلالة الكلام عليه، ثم اعترض بالجملة الجزائية بين الحال وذي الحال، ومن بدع التفاسير أن قوله: إن شاء الله من باب التقديم والتأخير وإنّ موضعها ما بعد قوله: ﴿سوف أستغفر لكم ربي﴾[2] في كلام يعقوب، وما أدري ما أقول فيه وفي نظائره.

فإن قُلْتَ: كيف جاز لهم أن يسجدوا لغير الله؟ **قُلْتُ:** كانت السجدة عندهم جارية مجرى التحية والتكرمة كالقيام والمصافحة وتقبيل اليد ونحوها مما جرت عليه عادة الناس من أفعال شهرت في التعظيم والتوقير، وقيل: ما كانت إلا انحناء دون تعفير الجباه وخرورهم سجدًا يأباه، وقيل معناه: وخرّوا لأجل يوسف سجدًا لله شكرًا وهذا أيضًا فيه نبوة. يقال أحسن إليه وبه، وكذلك أساء إليه وبه. قال:

أسيئي بنا أو أحسني لا ملومة

﴿من البدو﴾ من البادية؛ لأنهم كانوا أهل عمد وأصحاب مواش ينتقلون في المياه والمناجع **﴿نزغ﴾** أفسد بيننا وأغرى، وأصله من نخس الرائض الدابة وحمله على الجري يقال: نزغه ونسغه إذا نخسه **﴿لطيف لما يشاء﴾** لطيف التدبير لأجله رفيق حتى يجيء على وجه الحكمة والصواب، وروي: أنّ يوسف أخذ بيد يعقوب فطاف به في خزائنه فأدخله خزائن الورق والذهب وخزائن الحليّ وخزائن الثياب وخزائن السلاح وغير ذلك، فلما أدخله خزانة القراطيس قال: يا بنيّ ما أعقك عندك هذه القراطيس وما كتبت إليّ على ثمان مراحل؟ قال: أمرني جبريل، قال: أو ما تسأله؟ قال: أنت أبسط إليه مني فسله، قال جبريل عليه السلام: الله تعالى أمرني بذلك لقولك: ﴿وأخاف أن يأكله الذئب﴾[3] قال: فهلا خفتني. وروي: أن يعقوب أقام معه أربعًا وعشرين سنة ثم مات، وأوصى أن يدفنه بالشام إلى جنب أبيه إسحٰق فمضى بنفسه ودفنه ثمة، ثم عاد إلى مصر وعاش بعد أبيه ثلاثًا وعشرين سنة، فلما تم أمره وعلم أنه لا بدوم له طلبت نفسه الملك الدائم الخالد فتاقت نفسه إليه فتمنى الموت، وقيل: ما تمناه نبي قبله ولا بعده، فتوفاه الله طيبًا طاهرًا، فتخاصم أهل مصر وتشاحوا في دفنه، كل يحب أن يدفن في محلتهم حتى هموا بالقتال، فرأوا من الرأي أن عملوا له صندوقًا من مرمر وجعلوه فيه، ودفنوه في النيل بمكان يمرّ عليه الماء ثم يصل إلى مصر ليكونوا كلهم فيه شرعًا واحدًا، وولد له إفرائيم وميشا، وولد لإفرائيم نون ولنون يوشع فتى موسى، ولقد توارثت الفراعنة من العماليق بعده مصر، ولم يزل بنو إسرائيل تحت أيديهم على بقايا دين يوسف وآبائه إلى أن بعث الله موسى ﷺ.

﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾.

من في **﴿من الملك﴾** و **﴿من تاويل الأحاديث﴾** للتبعيض؛ لأنه لم يعط إلا بعض ملك الدنيا أو بعض ملك مصر وبعض التأويل **﴿أنت وليي﴾** أنت الذي تتولاني بالنعمة في الدارين، وبوصل الملك الفاني بالملك الباقي **﴿توفني مسلمًا﴾** طلب للوفاة على حال الإسلام، ولأن يختم له بالخير والحسنى كما قال يعقوب لولده: ﴿ولا تموتنّ إلا وأنتم مسلمون﴾[4] ويجوز أن يكون تمنيًا للموت على ما قيل **﴿وألحقني بالصالحين﴾** من آبائي أو على العموم، وعن عمر بن عبد العزيز: أنّ ميمون بن مهران بات عنده فرآه كثير البكاء والمسألة للموت فقال له: صنع الله على يديك خيرًا كثيرًا، أحييت سننًا وأمتّ بدعًا، وفي حياتك خير وراحة للمسلمين فقال: أفلا أكون كالعبد الصالح لما أقرّ الله عينه وجمع له أمره قال: **﴿توفني مسلمًا وألحقني بالصالحين﴾**.

فإن قُلْتَ: علام انتصب **﴿فاطر السموات﴾**؟ **قُلْتُ:** على أنه وصف لقوله: **﴿ربّ﴾**كقولك: أخا زيد حسن، أو على النداء.

ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾.

﴿ذلك﴾ إشارة إلى ما سبق من نبأ يوسف، والخطاب لرسول الله ﷺ ومحله الابتداء وقوله: **﴿من أنباء الغيب نوحيه إليك﴾** خبر إن، ويجوز أن يكون اسمًا موصولاً بمعنى الذي، ومن أنباء الغيب صلته وتوحيه الخبر

(1) سورة البقرة، الآية: 133.
(2) سورة يوسف، الآية: 98.
(3) سورة يوسف، الآية: 13.
(4) سورة آل عمران، الآية: 102.

والمعنى: أن هذا النبأ غيب لم يحصل لك إلا من جهة الوحي؛ لأنك لم تحضر بني يعقوب حين أجمعوا أمرهم وهو إلقاؤهم أخاهم في البئر كقوله: ﴿وأجمعوا أن يجعلوه في غيابت الجب﴾[1] وهذا تهكم بقريش وبمن كذبه؛ لأنه لم يخف على أحد من المكذبين أنه لم يكن من حملة هذا الحديث وأشباهه، ولا لقي فيها أحدًا ولا سمع منه، ولم يكن من علم قومه، فإذا أخبر به وقص هذا القصص العجيب الذي أعجز حملته ورواته لم تقع شبهة في أنه ليس منه وأنه من جهة الوحي، فإذا أنكروه تهكم بهم وقيل لهم: قد علمتم بالمكابرة أنه لم يكن مشاهدًا لمن مضى من القرون الخالية ونحوه ﴿وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر﴾[2] ﴿وهم يمكرون﴾ بيوسف ويبغون له الغوائل.

وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴿١٠٣﴾.

﴿وما أكثر الناس﴾ يريد العموم كقوله: ﴿ولكن أكثر الناس لا يؤمنون﴾[3] وعن ابن عباس رضي الله عنه: أراد أهل مكة أي: وما هم بمؤمنين ﴿ولو حرصت﴾ وتهالكت على إيمانهم لتصميمهم على الكفر وعنادهم.

وَمَا تَسۡـَٔلُهُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾.

﴿وما نسئلهم﴾ على ما تحدثهم به وتذكرهم أن ينيلوك منفعة وجدوى كما يعطي حملة الأحاديث والأخبار ﴿إن هو إلا ذكر﴾ عظة من الله ﴿للعالمين﴾ عامة وحث على طلب النجاة على لسان رسول من رسله.

وَكَأَيِّن مِّنۡ ءَايَةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ يَمُرُّونَ عَلَيۡهَا وَهُمۡ عَنۡهَا مُعۡرِضُونَ ﴿١٠٥﴾.

﴿من آية﴾ من علامة ودلالة على الخالق وعلى صفاته وتوحيده ﴿يمرون عليها﴾ ويشاهدونها وهم معرضون عنها لا يعتبرون بها. وقرئ: والأرض بالرفع على الابتداء ويمرون عليها خبره وقرأ السدي: والأرض بالنصب على ويطؤن الأرض يمرون عليها، وفي مصحف عبد الله، والأرض يمشون عليها برفع الأرض، والمراد ما يرون من آثار الأمم الهالكة وغير ذلك من العبر.

وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ ﴿١٠٦﴾.

﴿وما يؤمن أكثرهم﴾ في إقراره بالله وبأنه خلقه وخلق السموات والأرض إلا وهو مشرك بعبادته الوثن، وعن الحسن: هم أهل الكتاب معهم شرك وإيمان، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: هم الذين يشبهون الله بخلقه.

أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأۡتِيَهُمۡ غَٰشِيَةٞ مِّنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوۡ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿١٠٧﴾.

﴿غاشية﴾ نقمة تغشاهم، وقيل: ما يغمرهم من العذاب ويجللهم، وقيل: الصواعق.

قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٠٨﴾.

﴿هذه سبيلي﴾ هذه السبيل التي هي الدعوة إلى الإيمان والتوحيد سبيلي، والسبيل والطريق يذكران ويؤنثان، ثم فسر سبيله بقوله: ﴿أدعوا إلى الله على بصيرة﴾ أي: أدعو إلى دينه مع حجة واضحة غير عمياء و ﴿أنا﴾ تأكيد للمستتر في أدعو ﴿ومن اتبعني﴾ عطف عليه، يريد أدعو إليها أنا ويدعو إليها من ابتعني، ويجوز أن يكون أنا مبتدأ وعلى بصيرة خبرًا مقدمًا ومن اتبعني عطفًا على أنا إخبارًا مبتدأ بأنه ومن اتبعه على حجة وبرهان لا على هوى؛ ويجوز أن يكون على بصيرة حالاً من أدعو عاملة الرفع في أنا ومن اتبعني ﴿وسبحان الله﴾ وأنزهه من الشركاء.

وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿١٠٩﴾.

﴿إلا رجالاً﴾ لا ملائكة؛ لأنهم كانوا يقولون: ﴿لو شاء ربنا لأنزل ملائكة﴾[4] وعن ابن عباس رضي الله عنهما: يريد ليست فيهم امرأة، وقيل في سجاح المتنبئة:

ولم تزل أنبياء الله ذكرانا

وقرئ: نوحي إليهم بالنون ﴿من أهل القرى﴾؛ لأنهم أعلم وأحلم، وأهل البوادي فيهم الجهل والجفاء والقسوة ﴿ولدار الآخرة﴾ ولدار الساعة أو الحال الآخرة ﴿خير للذين اتقوا﴾ للذين خافوا الله فلم يشركوا به ولم يعصوه. وقرئ: أفلا تعقلون بالتاء والياء.

حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿١١٠﴾.

﴿حتى﴾ متعلقة بمحذوف دلّ عليه الكلام كأنه قيل: وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً فتراخى نصرهم حتى إذا استيأسوا عن النصر[5] ﴿وظنوا أنهم قد كذبوا﴾ أي: كذبتهم أنفسهم حين حدّثتهم بأنهم ينصرون، أو رجاؤهم لقولهم: رجاء صادق ورجاء كاذب، والمعنى: أنّ مدّة التكذيب والعداوة من الكفار وانتظار النصر من الله وتأميله قد تطاولت عليهم وتمادت، حتى استشعروا القنوط وتوهموا أن لا نصر لهم في الدنيا، فجاءهم نصرنا فجاة

(1) سورة يوسف، الآية: 15.
(2) سورة القصص، الآية: 44.
(3) سورة هود، الآية: 17.
(4) سورة فصلت، الآية: 14.
(5) قال أحمد: ولا يلزم أن يكون الله وعدهم بالنصر في الدنيا، بل كانوا يظنون ذلك، ويرجونه، لا عن إخبار ووحي.

من غير احتساب، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: وظنوا[1] حين ضعفوا وغلبوا أنهم قد أخلفوا ما وعدهم الله من النصر، وقال: كانوا بشرًا وتلا قوله: ﴿وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله﴾[2] فإن صح هذا عن ابن عباس فقد أراد بالظن: ما يخطر بالبال ويهجس في القلب من شبه الوسوسة وحديث النفس على ما عليه البشرية. وأما الظن الذي هو ترجح أحد الجائزين على الآخر فغير جائز على رجل من المسلمين، فما بال رسل الله الذين هم أعرف الناس بربهم وأنه متعال عن خلف الميعاد منزه عن كل قبيح، وقيل: وظن المرسل إليهم أنّ الرسل قد كذبوا أي: أخلفوا أو وظن المرسل إليهم أنهم كذبوا من جهة الرسل أي: كذبتهم الرسل في أنهم ينصرون عليهم ولم يصدقوهم فيه، وقرئ: كذبوا بالتشديد عليّ وظن الرسل أنهم قد كذبتهم قومهم فيما وعدوهم من العذاب والنصرة عليهم، وقرأ مجاهد: كذبوا بالتخفيف على البناء للفاعل هي وظن الرسل أنهم قد كذبوا فيما حدثوا به قومهم من النصرة، إما على تأويل ابن عباس، وإما على أنّ قومهم إذا لم يروا لموعدهم أثرًا قالوا لهم: إنكم قد كذبتمونا، فيكونون كاذبين عند قومهم، أو وظن المرسل إليهم أنّ الرسل قد كذبوا، وقرئ بهذا مشددًا: لكان معناه: وظن الرسل أنّ قومهم كذبوهم في موعدهم. قرئ: فننجي بالتخفيف والتشديد من أنجاه ونجاه وفنجي على لفظ الماضي المبني للمفعول، وقرأ ابن محيصن: فنجا. والمراد: ﴿من نشاء﴾ المؤمنون؛ لأنهم الذين يستاهلون أن يشاء نجاتهم وقد بيّن ذلك بقوله: ﴿ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين﴾.

لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾.

الضمير في ﴿قصصهم﴾ للرسل وينصره قراءة من قرأ: في قصصهم بكسر القاف، وقيل: هو راجع إلى يوسف وإخوته.

فإن قُلْتَ: فإلام يرجع الضمير في ﴿ما كان حديثًا يفترى﴾ فيمن قرأ بالكسر؟ **قُلْتُ:** إلى القرآن أي: ما كان القرآن حديثًا يفترى ﴿ولكن﴾ كان ﴿تصديق الذي بين يديه﴾ أي: قبله من الكتب السماوية ﴿وتفصيل كل شيء﴾ يحتاج إليه في الدين؛ لأنه القانون الذي يستند إليه السنة والإجماع والقياس بعد أدلة العقل، وانتصاب ما نصب بعد لكن للعطف على خبر كان، وقرئ: ذلك بالرفع عليّ ولكن هو تصديق الذي بين يديه.

عن رسول الله ﷺ: «علموا أرقاءكم سورة يوسف، فإنه أيما مسلم تلاها وعلمها أهله وما ملكت يمينه، هوّن الله عليه سكرات الموت، وأعطاه القوّة أن لا يحسد مسلمًا»[3].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة الرعد

الٓمٓرٰ ۚ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ ۗ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾.

﴿تلك﴾ إشارة إلى آيات السورة، والمراد بالكتاب السورة أي: تلك الآيات آيات السورة الكاملة العجيبة في بابها ثم قال: ﴿والذي أنزل إليك﴾ من القرآن كله هو ﴿الحق﴾ الذي لا مزيد عليه لا هذه السورة وحدها، وفي أسلوب هذا الكلام قول الأنمارية: هم كالحلقة المفرغة لا يدري أين طرفاها تريد الكلمة.

اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا ۖ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ۖ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾.

﴿الله﴾ مبتدأ و ﴿الذي﴾ خبره بدليل قوله: ﴿وهو الذي مدّ الأرض﴾ ويجوز أن يكون صفة، وقوله: ﴿يدبر الأمر يفصل الآيات﴾ خبر بعد خبر وينصره ما تقدمه من ذكر الآيات ﴿رفع السموات بغير عمد ترونها﴾ كلام مستأنف استشهاد برؤيتهم لها كذلك، وقيل: هي صفة لعمد ويعضده قراءة أبيّ: ترونه، وقرئ: عمد بضمتين ﴿يدبر الأمر﴾ أمر ملكوته وربوبيته ﴿يفصل﴾ آياته في كتبه المنزلة ﴿لعلكم توقنون﴾ بالجزاء وبأن هذا المدبر والمفصل لا بد لكم من الرجوع إليه، وقرأ الحسن: ندبر بالنون ﴿جعل فيها زوجين اثنين﴾ خلق فيها من جميع أنواع الثمرات زوجين زوجين حين مدّها ثم تكاثرت بعد ذلك وتنوعت، وقيل: أراد بالزوجين الأسود والأبيض، والحلو والحامض، والصغير والكبير، وما أشبه ذلك من الأصناف المختلفة ﴿يغشي الليل النهار﴾ يلبسه مكانه فيصير أسود مظلمًا بعد ما كان أبيض منيرًا، وقرئ: يغشي بالتشديد.

وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ ۖ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾.

﴿قطع متجاورات﴾ بقاع مختلفة مع كونها متجاورة

---

(1) قال أحمد: وهذا أيضا تأويل حسن، ينظم بين القراءتين؛ لأنّ ظن الأمم كذب رسلهم، تكذيب لهم، فيؤدي مؤدى قراءة التشديد.

(2) سورة البقرة، الآية: 214.

(3) ذكره الثعلبي في تفسيره.